"خمسة أفلام وقصصها الأصلية"

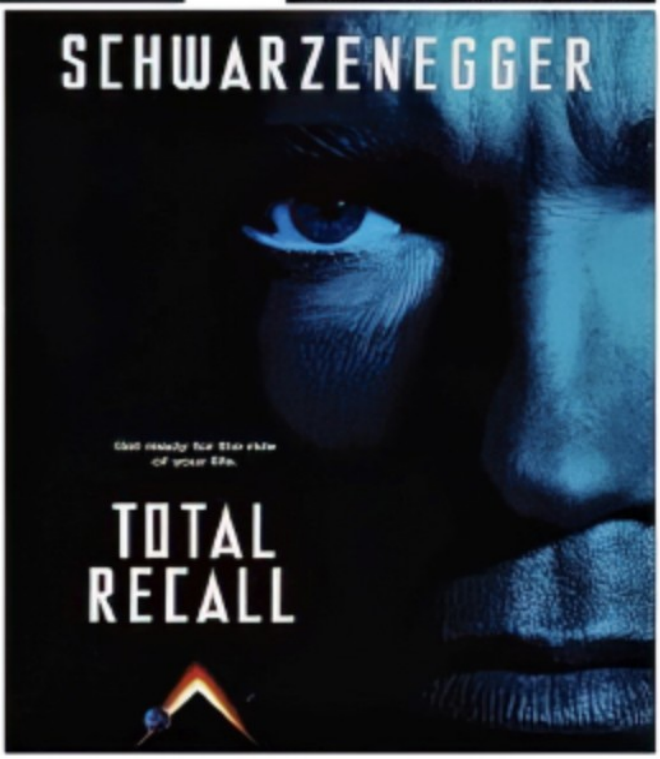

فريق متميزون

E-BOOK

أفلام في قصص

إعداد: مبادرة لأبعد مدى

العربي للنشر والتوزيع

قصص قصيرة مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أفلام في قصص
قصص قصيرة مترجمة..

إعداد: مبادرة لأبعد مدى

«يضم الكتاب ثلاث قصص طويلة مترجمة، واثنتين قصيرتين. شكلوا مصدر إلهام لأعمال سينمائية عديدة، يتنوع تصنيفها ما بين خيال علمي ورعب ودراما نفسية.

مرفق بكل قصة، مقال انطباعي عن الفيلم المستوحى عنها، ومدى اشتباكه مع النص الأصلي».

فكرة وإعداد: ياسين أحمد سعيد([1])

مبادرة (لأبعد مدى)([2])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

POSTER BY CHELSEA LOWE / CMLOWEART.COM
BE AFRAID.
BE VERY AFRAID.
THE FLY
BROOKSFILMS PRESENTS A DAVID CRONENBERG FILM THE FLY
JEFF GOLDBLUM GEENA DAVIS JOHN GETZ MUSIC BY HOWARD SHORE
SCREENPLAY BY CHARLES EDWARD POGUE AND DAVID CRONENBERG
PRODUCED BY STUART CORNFELD DIRECTED BY DAVID CRONENBERG

1- الذبابة([3])
تأليف: جورج لانجيلان

ترجمة: محمد عبد العزيز

I

لطالما أشعرتني التليفونات وأجراسها بعدم الراحة.

في الماضي، عندما كانت التليفونات مجرد أجهزة مثبتة بالحائط، كنت أكتفي بكرهها، لكن هذه الأيام، عندما صرت أجدها في كل زاوية وكل ركن، أصبحت أشعر بها تقتحم حياتي بكل صفاقة.

لدينا مقولة مأثورة بفرنسا تفيد بأن الرجل مهما كانت مهنته متواضعة - حتى ولو كان يعمل بتوصيل الفحم للمنازل - فهو لا يزال ملِك منزله، لكن مع وجود التليفونات، لم يعد هذا الكلام صادقًا، وأشك كذلك في أن الرجل الإنجليزي الأرستقراطي نفسه لم يعد ملك قلعته.

في أثناء وجودي بالمكتب، يثير إزعاجي رنين التليفون المفاجئ؛ فمهما كان الشيء الذي أفعله وقتها، وعلى الرغم من وجود عامل تحويل المكالمات، وعلى الرغم من سكرتيرتي، وعلى الرغم من وجود كل تلك الأبواب والجدران؛ فقد تمكن شخص غريب من الدخول للغرفة والاستقرار على مكتبي، ليتحدث في أذني مباشرة بكل ثقة، سواء أعجبني هذا أم لا.

بالمنزل يكون الشعور أكثر إثارة للأعصاب، لكن الأسوأ عندما يرن التليفون في منتصف الليل.. لو تمكن أحدهم من رؤيتي بينما أشعل الضوء وأقوم من مكاني، وعيناي نصف مغمضة لأرد عليه، فسأفترض أنني سأبدو مثل أي رجل نعسان آخر متكدر لأنه تم إزعاجه.. الحقيقة في هذه الحالة، هي أنني أجاهد لكي لا أشعر بالذعر، وأحارب شعورًا ملحًا بأن شخصًا غريبًا قد اقتحم منزلي، وصار بداخل غرفة نومي!

بحلول الوقت الذي أتمكن فيه من إمساك سماعة التليفون وقول: «مسيو ديلامبر معك..»، أكون قد هدأت ظاهريًّا، لكنني أصل لحالة أكثر طبيعية عندما أميز الصوت الموجود على الجهة الأخرى، وعندما أفهم ما هو المطلوب مني.

المجهود الذي أبذله للتحكم في رد فعل حيواني بالكامل مثل الخوف قد أصبح فعالًا للغاية، لدرجة أنني حينما اتصلت بي زوجة أخي في الثانية صباحًا لتطلب مني أن أحضر، بعد أن أقوم بالاتصال بالشرطة لتحذيرهم من أنها قد قتلت أخي للتو، سألتها بكل هدوء:

- كيف ولماذا قتلت «أندريه»؟

- «فرانسوا»، لا يمكنني شرح كل هذا عبر التليفون، أرجوك اتصل بالشرطة وتعالَ سريعًا!

- ربما كان من الأفضل أن آتي أنا أولًا يا «هيلين».

- لا، يجب أن تتصل بالشرطة أولًا، وإلا سيبدؤون في سؤالك أغرب الأسئلة الممكنة. سيواجهون صعوبة كافية لتصديق أنني فعلتها بمفردي.. وبالمناسبة، أظنُّ أنك يجب أن تخبرهم أن «أندريه»، أقصد جسده موجود بالأسفل في المصنع، ربما يفضلون أن يذهبوا هناك أولًا.

- هل قلتِ للتو إن جثة «أندريه» بالمصنع؟

- نعم.. تحت مطرقة البخار.

- تحت ماذا؟

- مطرقة البخار! لا وقت لكل هذه الأسئلة.. أرجوك تعالَ سريعًا يا «فرانسوا»! أرجوك تفهم أنني خائفة للغاية، وأعصابي لن تتحمل أكثر من هذا!

هل جربت من قبل أن تشرح لضابط شرطة نائم أن زوجة أخيك قد اتصلت بك للتو لتخبرك أنها قتلت أخاك بمطرقة البخار؟ أردت أن أعيد شرح الموضوع، لكنه لم يعطني الفرصة.

- نعم يا مسيو، نعم، أنا أفه.. ما اسمك؟ أين محل إقامتك؟ سألتك ما محل إقامتك؟

ثم استلم الشرطي «كاراس» المكالمة والموضوع بأكمله.. على الأقل بدا أنه فهم كل شيء.. هل يجب أن أنتظره؟ نعم، هو قال إنه سيمر بي ليأخذني لمنزل أخي.. متى؟ خلال خمس أو عشر دقائق.

كنت قد ارتديت سروالي للتو، حشرت نفسي في سترة، ووضعت على رأسي قبعة ومعطفًا، عندما توقف سيارة سيتروين سوداء ذات أضواء أمامية ساطعة أمام باب منزلي.

- أفترض أن لديكم حارسًا ليليًّا بمصنعكم يا مسيو «ديلامبر»، هل اتصل بك؟

سألني «كاراس» وهو يفلت عجلة القيادة، بينما أتخذ مكاني بجواره وأغلق باب السيارة.

- لا، لم يفعل.. على الرغم طبعًا من أن أخي بوسعه دخول المصنع من باب المعمل، فقد اعتاد أحيانًا أن يعمل لوقت متأخر.. كل الليالي في بعض الأوقات.

- هل عمل بروفيسور «ديلامبر» متصل بعملك؟

- لا، كان أخي يقوم بأعمال بحثية لحساب وزارة الخارجية، فقد أراد أن يبقى بعيدًا عن باريس لكن في الوقت نفسه أراد أن يكون بوسعه الوصول لعمال مهرة لتصليح أو لصنع أدوات صغيرة أو كبيرة تساعده في التجارب التي يقوم بها.

عُرضت عليه واحدة من ورش المصنع القديمة، وأتى ليعيش بأول بيت بناه جدنا على قمة التل خلف المصنع.

- تمام، فهمتك.. هل تحدث معاك عن عمله؟ أي نوع من الأبحاث كان يقوم بها؟

- نادرًا ما كان يتحدث عنها، أظنُّ أن وزارة الخارجية يمكنها إخبارك بالأمر.. كل ما أعرفه هو أنه كان على وشك القيام بعدد من التجارب التي كان يستعد لها لبعض الشهور، شيء له علاقة بتحلل المواد، هذا ما أخبرني به.

انحرف المحقق بالسيارة وخرج من الطريق دون أن يهدئ من سرعته. مر بها عبر بوابة المصنع المفتوحة، وتوقف بحدة بالقرب من رجل شرطة كان من الواضح أنه ينتظره.

لم أحتج إلى سماع تأكيد رجل الشرطة؛ فقد أيقنت أن أخي قد تُوفي.. بدا الأمر كأنني أعرف تلك المعلومة منذ سنين.. خرجت خلف المحقق وأنا أرتجف كالورقة.

خرج رجل شرطة آخر من أحد الممرات وقادنا نحو واحد من المحلات الذي أضيئت أنواره بالكامل. وقف المزيد من رجال الشرطة بجوار المطرقة، يراقبون رجلين يقومان بتركيب كاميرا. كانت تميل لأسفل، واضطررت لبذل بعض الجهد للنظر.

كان الأمر أقل بشاعة مما توقعت. على الرغم من أنني لم أرَ أخي ثملًا من قبل، فقد بدا وكأنه نام في أثناء حفلة صاخبة. كان مستلقيًا على بطنه، بينما كانت المطرقة المعدنية الثقيلة تخفيه تحتها.. لمحت رأسه وذراعه.. لم يعودا سوى كتلة مسحوقة غير مميزة الملامح.. وعلى الرغم من كون هذا مستحيل منطقيًّا؛ فقد بدا الأمر وكأنه دفع بطريقة ما رأسه وذراعه أسفل المطرقة الحديدية.

بعدما تحدث المحقق مع زملائه، التفت إليَّ قائلًا:

- كيف يمكننا رفع المطرقة يا مسيو «ديلامبر»؟

- سأرفعها لك.

- أترغب في أن نستدعي واحدًا من رجالك؟

- لا، أستطيع القيام بالأمر وحدي. ها هي لوحة التحكم، في السابق كانت المطرقة تعمل بالبخار، لكن كل شيء هنا صار يعمل بالكهرباء الآن.. انظر يا سيدي المحقق، تم ضبط الشاكوش عند قوة خمسين طنًا والتصادم عند المستوى صفر.

- صفر؟

- نعم، أو عند المستوى الأرضي، لو أنك تفضل تلك التسمية. لقد تم إعداده أيضًا من أجل الضربات المفردة، بمعنى أنه يجب رفعه بعد كل خبطة. لا أعرف ماذا لدى «هيلين»، أرملة أخي، لتقوله بخصوص كل هذا، لكنَّ هناك شيئًا واحدًا أنا متأكد منه: هي لم تكن تعرف كيف تضبط وتقوم بتشغيل المطرقة.

- ربما كانت مضبوطة بتلك الطريقة الليلة السابقة عندما انتهى العمل؟

- مستحيل، لا يتم ترك المطرقة مضبوطة عند مستوى صفر يا سيدي المحقق.

- تمام، وهل يمكن رفعها رويدًا؟

- لا، لا يمكن تنظيم سرعة الضربة العلوية upstroke. لكن على كل حال إن سرعتها ليست كبيرة للغاية عندما يتم ضبط الشاكوش على الضربات المفردة.

- تمام، هل يمكنك أن تريني كيف تعمل؟ لن يكون منظرًا جيدًا لتشاهده للأسف.

- لا يا سيدي المحقق، سأكون بخير.

- كل شيء جاهز؟

سأل الضباط الآخرون:

- عندما ترغب في البدء يا مسيو «ديلامبر»، نحن في انتظارك.

ألقيت نظرة خاطفة على ظهر أخي، قبل أن أضغط على زر الضربة العلوية Upstroke، ببطء لكن بقوة.

قاطع صمت المصنع غير المعتاد صوت تنهد الهواء المضغوط المندفع داخل الأسطوانات، وهو الصوت الذي يجعلني دومًا أظنُّ بأنه نفس عميق يأخذه رجل عملاق قبل أن يضرب عملاقًا آخر، بينما المطرقة الحديدية تهتز، وترتفع في خفة. سمعت كذلك صوت شفط بينما المطرقة تترك القاعدة المعدنية، وظننت أنني سأذعر عندما أرى جسد «أندريه» يسقط للأمام، بينما كتلة من الدماء تتفجر لتغطي الفوضى الشنيعة التي كانت تخفيها المطرقة.

- لن تنزل مرة أخرى يا مسيو «ديلامبر»، صح؟

- لا، مستحيل.

تمتمت بينما ألقي بصمام الأمان، قبل أن ألتفت للوراء لتصيبني نوبة غثيان أمام شرطي شاب الذي تغيَّر لون وجهه.

II

لأسابيع تالية، تولى المحقق «كاراس» القضية، فأخذ يستمع، ويسأل، ويتفقد المكان كله، ويكتب تقارير، ويبعث البرقيات والمكالمات التليفونية ذات اليمين وذات اليسار، ولاحقًا، بعدما أصبحنا صديقين تقريبًا، اعترف لي بأنه لوقت طويل اعتبرني المتهم الرئيسي، لكنه تخلى عن تلك الفكرة أخيرًا، لأنه لم يجد أي دليل عليَّ، أو دافع.

أمَّا أرملة أخي «هيلين»، فقد كانت هادئة للغاية خلال الموضوع كله لدرجة أن الأطباء أكدوا ما فكرت أنا فيه منذ فترة طويلة كتفسير منطقي لحالتها: لقد جُنَّت تمامًا! وبما أن هذا هو التفسير المنطقي الوحيد، فبالطبع لم تكن هناك أية محاكمة.

لم تحاول أرملة أخي مطلقًا أن تدافع عن نفسها بأية طريقة، بل إنها انزعجت إلى حد ما عندما اكتشفت أن من حولها يظنون أنها مجنونة، وهو ما اعتبروه طبعًا دليلًا أكيدًا على كونها كذلك.. اعترفت بقتل زوجها وأثبتت بسهولة قدرتها على التعامل مع المطرقة، لكنها لم تقل قطُّ: لماذا، وكيف بالتحديد، وتحت أية ظروف قتلت أخي.

اللغز الكبير كان: كيف ولماذا قام أخي بكل استسلام بحشر رأسه تحت المطرقة، وهو التفسير المنطقي الوحيد للدور الذي قام به في تلك المأساة.

سمع الحارس الليلي صوت الشاكوش ليلتها بوضوح، بل إنه أقر أنه سمعه مرتين. كان هذا غريبًا، بالإضافة إلى أن عدَّاد الضربات الذي يتم إعادته للصفر دومًا بعد انتهاء يوم العمل أكد أقواله، بما أنه كان يشير إلى رقم اثنين.

كما أن رئيس العمَّال، وهو المسؤول عن المطرقة، أكد أنه بعد التنظيف الذي قام به في اليوم السابق لجريمة القتل، قام كالعادة بإعادة عدَّاد الضربات للصفر، لكن على الرغم من هذا، فقد أصرت «هيلين» على أنها استعملت الشاكوش مرة واحدة فقط، وبدا هذا دليل آخر على جنونها.

في البداية تساءل المحقق «كاراس»، الذي تم تكليفه بالتحقيق في القضية، عمَّا إذا كان الضحية أخي فعلًا. لكن لم يكن هناك أي مجال للشك في تلك النقطة، بسبب الندبة المميزة التي امتدت من ركبته وحتى فخذه، والناتجة عن انفجار قذيفة على بعد بضع أقدام منه خلال الانسحاب عام 1940، كذلك هناك بصمات أصابع يده اليسرى والتي تطابقت مع تلك الموجودة بكل شبر في معمله وعلى أغراضه الخاصة بالمنزل.

تم وضع حارس على المعمل، ولم يلبث أن أتى ستة موظفين حكوميين من وزارة الخارجية في اليوم التالي. فتشوا كل أوراقه وأخذوا كل أدواته، لكن قبل الرحيل، أخبروا «كاراس» أن أهم الوثائق والأجهزة قد تم تدميرها.

قرر معمل شرطة «ليون»، وهو واحد من أشهر المعامل بالعالم، أن رأس «أندريه» قد تم لفه في قطعة من القماش قبل أن يتم سحقه بالمطرقة. وفي أحد

الأيام أحضر لي المحقق «كاراس» قطعة قماش ممزقة، والتي ميزت فيها على الفور قطعة القماش البنية التي رأيتها على المنضدة في معمل أخي، والتي يضع طعامه عليها عندما لا يكون بإمكانه ترك عمله.

بعد قضاء بضعة أيام في السجن تم تحويل «هيلين» لمستشفى أمراض عقلية قريبة، وهي واحدة من ثلاث مصحات بفرنسا يتم تحويل المجرمين المختلين عقليًّا إليها. تم نقل حضانة ابن أخي «هنرى» إليَّ، وهو صبي في السادسة من عمره. كان نسخة من أبيه، ولاحقًا تم القيام بكل الإجراءات القانونية لجعلي الوصي عليه.

وبسبب كون «هيلين» واحدة من أهدأ المرضى بالمصحة، تم السماح لها باستقبال الزوار، وذهبت لرؤيتها في أيام الآحاد.

اصطحبني المحقق مرة أو مرتين، ولاحقًا عرفت أنه قام بزيارة «هيلين» بمفرده كذلك، لكننا لم نتمكن من الحصول على المزيد من المعلومات من أرملة أخي، والتي بدت غير مبالية بما يحدث من حولها، ونادرًا ما كانت تجيب أسئلتي، أو أسئلة المحقق.. كانت تقضي معظم أوقاتها في الحياكة، لكن وقت فراغها المفضل كانت تقضيه في الإمساك بالذباب، والذي لم تكن تلبث أن تطلقه كما هو ثانية دون أن تؤذيه بعد أن تكون قد تفحصته بدقة.

لم تمر «هيلين» إلا بنوبة هياج واحدة، والتي بدت أقرب لانهيار عصبي.. كان هذا ما قاله الطبيب الذي أعطاها بعض المورفين لتهدئتها - في اليوم الذي رأت فيه ممرضة تسحق بعض الذباب.

في اليوم اللاحق لليوم الذي شهد نوبة هياج «هيلين» الأولى والوحيدة، قام المحقق «كاراس» بزيارتي.

قال:

- لدي شعور غريب بأن ما حدث له علاقة بحل لغز الموضوع بأكمله يا مسيو «ديلامبر».

لم أسأله عن كيفية معرفته أصلًا بموضوع نوبة هياج «هيلين».

- لا أفهمك بالكامل يا سيدي المحقق، كان يمكن أن تظهر مدام «ديلامبر» المسكينة اهتمامًا مبالغًا فيه بأي شيء آخر. حقًّا.. ألا تظن أن كون الذباب موضوع هياجها كان صدفة بحتة؟

- هل تظن أنها مجنونة فعلًا؟

- يا عزيزي المحقق، لا أفهم كيف يمكنك الشك في تلك النقطة.. هل تشك في هذا؟

- لا أعرف؛ فعلى الرغم من شهادة الأطباء، لدي انطباع بأن مدام «ديلامبر» لديها عقل صافٍ، حتى وهي تصطاد الذباب.

- فلنفترض أنك محق، كيف تفسر تصرفها تجاه ابنها؟ لم يبد عليها على الإطلاق أنها تعتبره طفلها!

- أتعرف يا مسيو «ديلامبر»، فكرت بخصوص تلك النقطة كذلك.. ربما كانت تحاول حمايته.. ربما كانت تخاف منه أو تكرهه حتى؟

- أخشى أنني لا أفهم شيئًا يا عزيزي المحقق.

- هل لاحظت ولو للحظة أنها لا تمسك بالذباب أبدًا في وجود ابنها؟

- لا، لكن عندما أفكر بالأمر أجد أنك محق، نعم، هذا غريب.. لكن أخشى أنني ما زلت لا أفهم.

- ولا أنا أفهم يا مسيو «ديلامبر»، وأخشى القول إننا لن نفهم أبدًا، إلا في حالة تحسن زوجة أخيك.

لا يظن الأطباء بوجود أمل في هذا.

- فعلًا.. هل تعرف عمَّا إذا كان أخوك قد أجرى تجاربه على الذباب؟

- لا أعرف حقيقة، لكن لا أظنُّ، هل سألت رجال وزارة الخارجية؟ كانوا يعرفون كل شيء بخصوص عمله.

- نعم سألتهم.. ضحكوا عليَّ.

- أستطيع تفهم أسبابهم.

- أنت محظوظ للغاية لكونك تفهم أي شيء يا مسيو «ديلامبر»، أمَّا أنا فلا أفهم شيئًا، لكنني أتمنى أن أفهم يومًا ما.

III

- عمي، هل يعيش الذباب لفترة طويلة؟

كنا قد انتهينا لتونا من تناول غدائنا، وكما اعتدنا، كنت أسكب بعض النبيذ في كوب ليقوم «هنري» بتغميس البسكويت فيه.

لحسن الحظ أن «هنري» كان يحملق بالكوب وهو يمتلئ لحظتها، وإلا لكان قد شعر بالرعب من منظري في تلك اللحظة.

كانت تلك أول مرة يذكر فيها الذباب، وقد ارتجفت لفكرة أن المحقق «كاراس» بسهولة كان يمكن أن يكون موجودًا ويسمعه. أكاد أتخيل اللمعان الذي سيظهر في عينيه وهو يجيب عن تساؤل ابن أخي بسؤال آخر، أكاد أسمعه يقول: «لا أعرف يا «هنري».. لماذا تسأل؟».

- لأنني رأيت الذبابة التي كانت تبحث عنها ماما ثانية.

وبعدما شربت كوب «هنري» من النبيذ انتبهت إلى أنه أجاب عن تساؤلي غير المنطوق.

- لم أكن أعرف أن أمك تبحث عن ذبابة.

- نعم، كانت تبحث.. صحيح أنها كبرت كثيرًا، لكن لا يزال بإمكاني تمييزها بسهولة.

- أين رأيت تلك الذبابة يا «هنري»، وكيف ميزتها؟

- هذا الصباح على المكتب الخاص بك، يا عمي «فرانسوا»، رأسها أبيض بدل الأسود، ولديها ساق غريبة الشكل.

شعرت بأنني تحولت لنسخة من المحقق «كاراس» أكثر وأكثر، لكنني حاولت أن أبدو عديم الاهتمام بالموضوع، استمريت:

- ومتى رأيت تلك الذبابة للمرة الأولى؟

- في اليوم الذي ذهب فيه أبي بعيدًا.. كنت قد اصطدتها، لكن ماما أجبرتني على إفلاتها. وبعد ذلك أرادت مني أن أبحث عنها ثانية، لأنها غيرت رأيها.

هزَّ كتفيه كما اعتاد أخي أن يفعل، وقال:

- أنت تعرف كيف هم النساء.

- أظن أن تلك الذبابة قد ماتت منذ زمن طويل، ولا بدَّ أنك مخطئ بشأنها يا «هنري».

أجبته، وأنا أقوم من مكاني متجهًا نحو الباب.

حالما خرجت من الحجرة، جريت للدور العلوي حيث مكتبي. لم أجد أي ذبابة في أي مكان.. كنت منزعجًا أكثر مما توقعت أو أردت.. فقد أثبت «هنري» للتو أن «كاراس» كان قريبًا من العثور على دليل أكثر مما بدا لي عندما كان يخبرني بخواطره المتعلقة بماضي «هيلين».

وتساءلت للمرة الأولى عمَّا إذا كان «كاراس» يعرف أكثر ممَّا يظهر لي، وللمرة الأولى كذلك تساءلت عمَّا إذا كانت «هيلين» فعلًا مجنونة، وشعرت بشعور غريب وشنيع ينمو بداخلي، وكلما فكرت فيه، شعرت، بشكل ما أن «كاراس» محق: «هيلين ستفلت بها!».

ماذا يمكن أن يكون السبب لمثل تلك الجريمة الوحشية؟ ما الذي تسبب في حدوثها؟ وماذا حدث حقًّا وقتها؟

فكرت في مئات الأسئلة التي سألها «كاراس» لـ«هيلين».. أحيانًا أسئلة لطيفة كممرضة تحاول التخفيف عن مريض، وأحيانًا أسئلة صارمة وباردة، وكثيرًا ما كان ينبح بأسئلته في غضب.

أجابت «هيلين» القليل جدًّا من أسئلته، ودومًا بصوت هادئ، دون أن يبدو عليها أي انتباه للهجة التي قيل بها السؤال، وعلى الرغم من الحالة الغريبة التي كانت فيها، فقد بدت بكامل قواها العقلية في ذلك الوقت.

كان «كاراس» أذكى من مجرد محقق شرطة. كان لبقًا ومهذبًا وواسع الاطلاع. كان محللًا نفسيًّا ذكيًّا. وكانت لديه طريقة مذهلة في كشف الأكاذيب والشهادات الزور قبل أن يتم حتى التفوه بها.

عرفت أنه تقبَّل الإجابات الشحيحة التي أخبرته بها «هيلين» بصفتها الحقيقة، لكن كانت هناك كل تلك الأسئلة التي لم تجبها قطُّ، أهمها وأكثرها مباشرة من البداية، كانت «هيلين» تقول بكل بساطة:

«لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال».

كانت تجيبه بصوتها الخفيض الهادئ، وتلك هي النهاية!

لم يبدُ أن تكرار توجيه الأسئلة يضايقها.. خلال ساعات الاستجواب التي خضعت لها، لم تشِر «هيلين» ولو لمرة أن الضابط قد وجَّه لها هذا السؤال أو ذاك مسبقًا.. بل كانت تقول بكل بساطة: «لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال»، وكأنها أول مرة يتم توجيه السؤال لها، وأول مرة تجيب عليه.

الكليشيه كان في الحاجز المنيع الذي لم يتمكن المحقق «كاراس» من الحصول ولو على لمحة ممَّا خلفه. لم ينجح في تكوين أي فكرة عمَّا تفكر فيه «هيلين». كانت قد أجابت طواعية عن كل الأسئلة المتعلقة بحياتها مع أخي – والتي بدت حياة سعيدة دون حوادث – حتى مصرعه، لكن كل ما تقوله عن حادثة القتل هو أنها قتلته مستخدمة المطرقة البخارية، رافضة أن تقول لماذا، أو ما الذي قاد لهذا، أو كيف تمكنت من إقناع أخي بالوقوف تحتها.. لم تكن ترفض الإجابة بقدر ما

كانت تبدو شاردة، دون أية انفعالات ظاهرة على وجهها، قبل أن تقول: «لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال».

كما سبق وأن قلت، كانت «هيلين» قد أظهرت للضابط أنها تعرف كيف تقوم بتشغيل المطرقة البخارية.. لكن «كاراس» لم يجد إلا نقطة واحدة لا تتفق مع اعتراف «هيلين»، وهي أن المطرقة تم استخدامها مرتين.. وبما أن «كاراس» لم يعد مقتنعًا بأن الموضوع بسبب الجنون، قرر استخدام هذه النقطة ليهدم دفاع «هيلين» الصلب كالحجر، مقررًا أن التركيز على تلك النقطة سيتسبب في شرخ كبير في دفاعها.. لكن، أرملة أخي لم تلبث أن رممت الشرخ باعترافها:

- حسنًا، لقد كذبت، أنا استخدمت المطرقة مرتين فعلًا، لكن لا تطلب مني أن أقول السبب، لأنني لا أستطيع إخبارك به.

- هل هذه هي.. كذبتك الوحيدة يا مدام «ديلامبر»؟

سألها المحقق، محاولًا أن يتابع الخيط الوحيد الذي بدا في صالحه.

- إنها كذلك، والآن صرت تعرفها يا سيدي المحقق.

لاحظ «كاراس» في انزعاج أن «هيلين» بوسعها قراءته كأنه كتاب مفتوح.

فكرت في طلب المحقق، لكن خاطر أنه سيبدأ في استجواب «هنري» وإزعاجه جعلني أتردد. سبب آخر لترددي هو خوف غامض من كونه سيبحث عن الذبابة التي يتحدث عنها «هنري»، بل وربما يعثر عليها، وهذا أزعجني كثيرًا لأنني لم أجد أي تفسير لهذا الخوف بالذات.

لم يكن «أندريه» حتمًا ذلك النوع الشارد دومًا من العلماء، الذين يسيرون وسط المطر بمظلة مطوية تحت إبطهم.. كان بشريًّا مثلنا، وكان لديه حس فكاهة قوي.. كان يحب الأطفال والحيوانات ولم يكن يتحمل رؤية معاناة أي أحد.. ورأيته أكثر من مرة يترك عمله ليتفرج على استعراض لفرقة الإطفاء المحلية، ليرى رحلة راكبي العجلات الفرنسيين وهي تمر، أو حتى ليتابع استعراض السيرك وهو يمر بالبلدة.

كان يحب ألعاب الذكاء، وألعابًا أخرى، مثل: البلياردو والتنس، والبريدج، والشطرنج.

كيف يمكن إذًا تفسير موته؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث ليجعله يضع رأسه تحت المطرقة؟ من الصعب أن يكون بسبب تحدٍ سخيف أو اختبار لشجاعته.. كان يكره الرهانات ولم يكن يطيق من ينغمسون فيها.. عندما كان يسمع عن رهان ما، كان يذكر الحضور الموجود وقتها دومًا أن الرهان هو عقد بين أحمق ومحتال، حتى لو انتهى نهاية غير متوقعة وانعكست الأدوار.

بدا أن هناك احتمالين فقط لتفسير موت «أندريه»، إما أنه جن، وإما أنه كان لديه سبب ليترك زوجته تقتله بتلك الطريقة الغريبة والمروعة، وماذا يمكن أن يكون دور زوجته في كل هذا؟ مستحيل أن يكون كلاهما مجنونًا، صح؟

وبما أنني قد قررت بشكل نهائي أنني لن أخبر «كاراس» بخصوص اعترافات ابن أخي البريئة؛ فقد فكرت أنني سأحاول استجواب «هيلين» بنفسي.

بدت كأنها تنتظر زيارتي، لأنني وجدتها تأتي للردهة تقريبًا في الوقت نفسه الذي كنت أعلن فيه عن شخصيتي لرئيسة الممرضات ويتم السماح لي بالدخول.

- أردت أن أريك حديقتي.

فسَّرت لي «هيلين» بينما أحدق في السترة التي تهدلت على كتفيها.

باعتبارها واحدة من النزلاء المستقرين، تم السماح لها بالذهاب للحديقة في ساعات محددة من اليوم.. طلبت الإذن بالحصول على قطعة أرض من الحديقة لتزرع فيها بعض الزهور، وتم السماح لها بهذا، وقد أرسلت لها من جانبي بعض البذور وبعض شجيرات الورد من حديقتي.

أخذتني مباشرة لمقعد خشبي ريفي الطراز تحت شجرة بالقرب من قطعة الأرض الخاصة بها.

باحثًا عن الطريقة المناسبة لمناقشة موضوع وفاة «أندريه»، جلست لوهلة أتابع بطرف مظلتي العلامات المحفورة على الأرض.

سألتني «هيلين» بعد وهلة:

- «فرانسوا»، أريد أن أعرف منك شيئًا.

- أي شيء يا «هيلين».

- أريد فقط أن أعرف شيئًا واحدًا، هل يعيش الذباب لفترة طويلة للغاية؟

حدقت فيها، وأنا أوشك أن أخبرها أن ابنها سألني السؤال نفسه منذ بضع ساعات، عندما أدركت أن هذا هو المدخل الذي كنت أبحث عنه، وربما كانت فرصتي الذهبية لكي أحطم جدار دفاعها الصلب، سأعرف هل هي مجنونة فعلًا أم لا..

راقبتها جيدًا وأنا أجيب:

- لا أعرف حقًّا يا «هيلين»، لكن الذبابة التي كنتِ تبحثين عنها كانت في مكتبي هذا الصباح.

لا مجال للشك أنني صدمتها بإجابتي؛ فقد أدارت رأسها بقوة لدرجة أنني سمعت عظام رقبتها تطقطق. فتحت فمها، لكنها لم تتفوه بحرف، بدت عيناها فقط كأنهما تصرخان في ذعر.

نعم، كان هذا دليل على أنني قد اخترقت نقطة مهمة، لكن ما هي؟

لا بدَّ أن «كاراس» كان سيعرف ماذا يجدر به فعله في مثل هذا الموقف، أما أنا لا.. كل ما أعرفه هو أنه لم يكن ليترك لها الوقت للتفكير، أو لتتعافى من الصدمة، لكن كل ما تمكنت من فعله، ويجب أن أقول إن حتى فعل هذا كان صعبًا، كان أن أحافظ على وجهي دون تعبير، آملًا أن يتهدم دفاع «هيلين».

لا بدَّ أنها ظلت لوهلة دون أن تتنفس، لأنها فجأة شهقت ووضعت كلا يديها فوق فمها الذي كان لا يزال مفتوحًا. همست وعيناها تتفحصان كل شبر من وجهي.

- «فرانسوا»، هل قتلتها؟

- لا.

- لا بدَّ أنها لديك إذًا.. لا بدَّ أنك تحملها معك! أعطيني إياها!

كانت تقريبًا تصرخ في، وتلمسني بكلتا يديها، ولو أنها كانت أقوى قليلًا، فلا بدَّ أنها كانت ستفتشني.

- لا يا «هيلين»، ليست معي.

- لكنك صرت تعرف الآن.. لا بدَّ أنك خمنت، صح؟

- لا يا «هيلين»، أعرف شيئًا واحدًا فقط، وهو أنك لستِ مجنونة. لكنني أريد أن أعرف كل شيء، وبطريقة ما، سأعرف.. يمكنك الاختيار بين أن تخبريني بكل شيء وسأرى وقتها ما يمكن فعله، أو....

- أو ماذا؟ قلها!

- كنت سأقولها يا «هيلين»، أو أؤكد لكِ أن تلك الذبابة ستكون أمام صديقك المحقق «كاراس» غدًا بمجرد استيقاظه من النوم.

بقيت ساكنة لوهلة، تنظر لأسفل نحو كفي يديها، وعلى الرغم من الجو البارد؛ فقد غطى العرق جبهتها ويديها.

ودون حتى أن تحاول إزاحة خصلة من شعرها البني الطويل دفعتها هبة من الرياح نحو فمها، تمتمت:

- لو أخبرتك، هل تعدني بتدمير تلك الذبابة بمجرد خروجك من هنا؟

- لا يا «هيلين»، لا يمكنني أن أعدك بشيء كهذا قبل أن أفهم.

- لكن يا «فرانسوا»، يجب أن تفهم أنني وعدت «أندريه» بأنني سأدمر تلك الذبابة، يجب أن يتم تنفيذ هذا الوعد ولا يمكنني قول شيء حتى يتم هذا.

شعرت بدنونا من طريق مغلق، لم أكن قد خسرت المعركة بعد، لكنني كنت أخسر زمام المبادرة.. قررت أن أجرب حظي مرة أخرى:

- «هيلين»، أنت تفهمين بالطبع أنه حالما يتفحص رجال الشرطة تلك الذبابة سيعرفون أنك لستِ مجنونة، ثم..

- «فرانسوا، لا! من أجل «هنري»! ألا ترى؟ كنت أتوقع ظهور تلك الذبابة، كنت آمل أن تعثر عليَّ هنا، لكن لم يكن بوسعها معرفة ماذا حدث لي، ماذا كان بوسعها أن تفعل غير أن تذهب لأحبائه، مثل «هنري»، مثلك.. أنت من سيعرف وسيفهم ماذا يجب أن يُفعل!

هل كانت مجنونة فعلًا، أم أنها كانت تماطل ثانية؟ لكن أيًّا كانت حالتها، فقد كانت مدركة.. كانت تتساءل كيف يمكنها أن تتابع دون المخاطرة بأن يتم الإيقاع بها، قلت بكل هدوء:

- أخبريني بكل شيء يا «هيلين»، أستطيع حماية ابنك.

- حمايته من أي شيء؟ ألا يمكنك أن تفهم أن وجودي هنا لكي أمنع «هنري» من أن يكون ابن المرأة التي تم إعدامها بالمقصلة لأنها قتلت أباه؟ ألا تفهم أنني أفضِّل المقصلة عن الحياة كالأموات في مصحة المجانين هذه؟

- أفهم هذا يا «هيلين»، وسأبذل قصارى جهدي لهذا الصبي سواء طلبتي مني ذلك أم لا.. إذا رفضت إخباري، سأظل أفعل ما بوسعي لحماية «هنري»، لكن يجب أن تفهمي أن هذه اللعبة ستخرج من بين يدي؛ لأن الذبابة ستصير في عهدة «كاراس».

- لماذا تريد أن تعرف.

قالتها كجملة عادية أكثر منها سؤالًا، وهي تكافح للتحكم في أعصابها.

- لأنني يجب أن أعرف، وسأعرف، كيف مات أخي يا «هيلين».

- حسنًا.. خذني للمنزل، وسأعطيك ما يمكن أن يعتبره المحقق اعترافي.

- أتقصدين أن تقولي إنك كتبتيه!

- نعم.. لم تكن أنت المقصود، لكنه موجه أكثر لصديقك المحقق. كنت أعرف أنه
- عاجلًا أم آجلًا، سيقترب كثيرًا من الحقيقة.

- ليس لديكِ اعتراض إذًا أن يقرأه؟

- تصرَّف كما ترى مناسبًا لك يا «فرانسوا»، انتظرني لدقيقة.

تركتني واقفًا عند باب الردهة بينما جرت للطابق العلوي.. إلى غرفتها، وخلال أقل من دقيقة كانت قد عادت وهي تحمل مظروفًا كبيرًا بني اللون.

- اسمعني يا «فرانسوا»، أنت لست ذكيًّا مثل أخيك المسكين، لكنك كذلك لست غبيًا.. كل ما أطلبه منك هو أن تقرأ هذا بمفردك، وبعد هذا تصرف كما يحلو لك.

- يمكنني أن أعدك بهذا يا «هيلين».

أجبتها وأنا أتناول المظروف الضخم.

- سأقرؤه الليلة وعلى الرغم من أن غدًا ليس من أيام الزيارة؛ فإنني سآتي لزيارتك.

- كما تشاء.

أجابتني وهي تستدير لتعود للدور العلوي دون أن تكلف نفسها عناء توديعي.

IV

وبينما كنت أتمشى من الجراج للمنزل، قرأت الكلمات المنقوشة على المظروف:

«إلى من يهمه الأمر

(غالبًا المحقق كاراس)».

أخبرت الخدم أنني سآكل عشاءً خفيفًا على الفور في مكتبي، ولا أرغب في أي إزعاج بعد هذا، ومن ثم أسرعت للطابق العلوي. ألقيت بمظروف «هيلين» على المكتب، ثم فتشت الحجرة بحرص قبل أن أغلق كل مصاريع النوافذ وأسدل جميع الستائر.. كان كل ما تمكنت من العثور عليه هو ناموسة ميتة منذ فترة ومحشورة في الجدار بالقرب من السقف.

طلبت من الخادمة أن تضع الصينية التي تحملها على المنضدة المجاورة للمدفأة، وسكبت لنفسي كوبًا من النبيذ قبل أن أغلق الباب خلفها. فصلت سلك التليفون – كما اعتدت أن أفعل مؤخرًا بالمساء – وأطفأت كل الأنوار باستثناء الأباجورة الموجودة على مكتبي.

فتحت مظروف «هيلين»، وأخرجت منه حزمة سميكة من الأوراق المليئة بالكتابة. قرأت فيها السطور التالية التي كانت مرصوصة بعناية في منتصف الصفحة الأولى:

«هذا ليس اعترافًا لأنني – على الرغم من أنني قتلت زوجي - لستُ بقاتلة.. بكل بساطة وصدق كنت أنفذ آخر رغبة له في أن أسحق رأسه وذراعه اليمنى تحت المطرقة البخارية بمصنع أخيه».

ودون حتى أن ألمس كوب النبيذ الموجود بجانبي، قلبت الصفحة وبدأت القراءة:

«لنحو سنة قبل وفاته، أخبرني زوجي عن بعض تجاربه.. كان متأكدًا أن زملاءه بوزارة الخارجية سيوقفون بعض تجاربه هذه لأنها خطيرة للغاية، لكنه كان مصممًا على الحصول على نتائج إيجابية قبل الإعلان عن اكتشافه.

حتى الآن كانت الأشياء الوحيدة التي يمكن نقلها هي الأصوات والصور. ويتم نقلها خلال الفراغ بواسطة الراديو والتليفزيون، لكن «أندريه» ادَّعى أنه اكتشف طريقة لنقل المواد كذلك.. كل المواد الصلبة.. يكفي فقط وضعها على الناقل لكي يتم تفتيتها وإعادة تكوينها في مكان استقبال آخر مُعد خصيصًا لها.

اعتبر «أندريه» أن اختراعه هذا هو أعظم اختراع منذ تم صنع أول عجلة من جذع شجرة.. اعتقد أن نقل المواد عن طريق التفتيت وإعادة الدمج اللحظي سيغيران شكل الحياة التي نعرفها بالكامل.. لأن معنى هذا نهاية كل وسائل المواصلات، ليست التي تستخدم في نقل البضائع والطعام فقط، لكن تلك التي تُستخدم لنقل البشر كذلك. وعلى الرغم من كون «أندريه» رجلًا عمليًّا لا يسمح للنظريات أو لأحلام اليقظة بأن تستولي عليه، فإنه بدأ فورًا في تخيل الزمن الذي

ستختفي فيه كل وسائل النقل: الطائرات، والسفن، والقطارات، والسيارات، وهكذا لن تعد هناك حاجة لخطوط السكك الحديدية، والموانى، والمطارات، أو حتى المحطات.

كل هذا سيتم استبداله بمحطات نقل واستقبال المواد في العالم كله.. سيتم وضع المسافرين والبضائع في كابينات خاصة، وعند إشارة معينة، سيختفون بكل بساطة ليظهروا مرة أخرى في اللحظة نفسها تقريبًا في محطة الاستقبال المختارة.

كان جهاز استقبال «أندريه» على بعد بضع أقدام من جهاز النقل، في حجرة ملحقة بمعمله.. وفي البداية مر بكل العقبات الممكنة.. تجربته الناجحة الأولى كانت على مطفأة سجائر من على مكتبه، وهي تذكار جلبناه معنا من رحلة للندن.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يخبرني فيها بموضوع تجاربه، ووقتها لم تكن لديَّ أدنى فكرة عمَّ يتكلم عندما أتى مندفعًا بكل حماس، قبل أن يرمى المطفأة في حجري.

- «هيلين»، انظري! لجزء من الثانية، عشرة على مليون من الثانية، تحللت تلك المطفأة بالكامل.. للحظة واحدة لم تعد موجودة من الأصل! اختفت! لا شيء بقي منها، لا شيء على الإطلاق! فقط بعض الذرات التي تنتقل عبر الفضاء بسرعة الضوء! وفي اللحظة التالية، تجمعت تلك الذرات ثانية في شكل مطفأة سجائر!

- «أندريه»، أرجوك.. أرجوك! ماذا تقول بحق السماء؟

بدأ يرسم على خطاب كنت أكتبه.. ضحك على ملامحي العابسة، أزاح كل خطاباتي من على المنضدة قبل أن يقول:

- لا تفهمين؟ حسنًا.. فلنبدأ من البداية.. «هيلين»، أتتذكرين عندما قرأت عليكِ من قبل مقالة عن أحجار طائرة غامضة بدت وكأنها ظهرت من العدم، وسقطت على بعض المنازل في الهند؟ بدت كأنها تأتي طائرة من الخارج، على الرغم من الأبواب والنوافذ المغلقة.

- نعم، أتذكر.. أتذكر كذلك أن البروفيسور «أوجيير»، صديقك من الكلية الفرنسية، والذي أتى لبضعة أيام، قرر أنه لو لم تكن هناك خدعة بالأمر، فالتفسير الوحيد الممكن هو أن تلك الأحجار قد تم قذفها من الخارج، لتخترق الجدران، ثم تم إعادة تكوينها قبل أن تصطدم بالأرض أو الجدران المقابلة.

- هذا صحيح، وأضفت أنا وقتها فرضية أخرى محتملة، وهي التفتت اللحظي الجزئي للجدران عندما كانت تلك الأحجار تخترقها.

- نعم يا «أندريه»، أتذكر كل هذا، وأفترض أنك تتذكر كذلك أنني فشلت في فهم كلامكم، وأنك انزعجت من هذا، حسنًا، ما زلت لا أستطيع فهم لماذا وكيف يمكن للأحجار، حتى وهي متحللة، أن تخترق الجدران والباب المغلق.

- لكن الموضوع ممكن يا «هيلين»، لأن الذرات التي تكوِّن المواد ليست ملتصقة ببعضها مع بعض، ليست كقوالب الطوب التي تبني جدارًا.. بل يفصلها اتساعات نسبية من الفراغ.

- هل تعني أنك قمت بتحليل ذرات تلك المطفأة، ثم أعدت تجميعها ثانية بعد دفعها من خلال شيء ما؟

- بالضبط، جعلتها تخترق الجدار الذي يفصل بين جهاز النقل وجهاز الاستقبال.

- وهل سأكون غبية لو سألتك عن الفائدة التي ستعود للبشرية من نقل مطافئ السجائر عبر الجدران؟

بدت الإهانة على «أندريه»، لكنه لم يلبث أن فهم أنني أداعبه، فلم يلبث أن تحمس ثانية ليخبرني ببعض الاحتمالات التي سيفيد فيها اكتشافه.

تمتم أخيرًا وهو مأخوذ الأنفاس:

- أليس هذا مدهشًا يا «هيلين»؟

- نعم يا «أندريه»، لكنني آمل أنك لن تحاول نقلي، سأخشى كثيرًا أن أخرج من الناحية الأخرى مثل مطفأتك.

- ماذا تعنين؟

- أتتذكر ماذا كان مكتوبًا تحت المطفأة؟

- نعم طبعًا، صُنع في اليابان. كانت هذه هي مزحتنا المفضلة وقتها عن تذكارنا من لندن.

- الكلمات لا تزال موجودة يا «أندريه»، لكن.. انظر!

أخذ المطفأة من يدي، ثم تجهم، وسار حتى النافذة، قبل أن يبدو عليه الشحوب، وعرفت أنه قد رأى ما أثبت لي أنه قد قام بتجربة غريبة.. الكلمات الثلاث لا تزال موجودة، لكنها صارت معكوسة: «نابايال يف عنص».

دون كلمة، وقد نسي تمامًا وجودي، أسرع «أندريه» لمعمله، ولم أره قبل الصباح التالي. كان متعبًا وغير حليق الذقن بعد ليلة من العمل المستمر.

بعدها ببضعة أيام، واجه «أندريه» بعض المصاعب التي جعلته يفقد أعصابه، ويبقى غاضبًا لعدة أسابيع.. ظللت متحملة لبعض الوقت، لكن لأنني كنت غاضبة ذات ليلة، فقد تشاجرنا شجارًا سخيفًا على بعض الأمور التافهة. كان مكتئبًا في تلك الفترة.

- أنا آسف يا عزيزتي، كنت في متاهة من المشكلات وتسببت لكم جميعًا بوقت عصيب.. فأول تجربة لي مع كائن حي فشلت تمامًا.

- «أندريه»! هل أجريت تلك التجربة على «داندیلو»؟

- نعم.. كيف عرفتِ؟

أجابها في استسلام. وأكمل قائلًا:

- لقد تفتت بشكل مثالي، لكن المشكلة أنه لم يظهر في جهاز الاستقبال.

- أوه، ماذا حدث له إذًا يا «أندريه»؟

- لا شيء... لم يعد هناك ما يُدعى «داندیلو». لم يتبقَ منه غير بضع ذرات من قطٍ تتجول في الفضاء السحيق، دون أن يعرف أحد مكانها.

«داندیلو» هو قط أبيض صغير عثرت عليه الطاهية ذات صباح في الحديقة، قمنا بتبنيه على الفور، والآن فهمت كيف اختفى، وكنت غاضبة للغاية من الأمر برمته، لكن زوجي كان بائسًا بما يكفي لدرجة أنني فضلت البقاء صامتة.

خلال الأسابيع التالية، لم أعد أرى زوجي تقريبًا، وكانت معظم وجباته يتم إرسالها إلى معمله بالأسفل، وعندما أستيقظ بالصباح، في الأغلب أجد فراشه كما هو لم يُمس.. أحيانًا، عندما يدخل الغرفة في وقت متأخر للغاية، كنت أجد آثارَ عاصفةٍ لا تصدر إلا عن رجل استيقظ مبكرًا للغاية وتخبَّط في حجرته في الظلام قالبًا إيَّاها رأسًا على عقب.

ذات ليلة، جاء للعشاء مبتسمًا أكثر من اللازم، وأدركت أن كل مشكلاته قد انتهت.. لكن ابتسامته اختفت عندما أدرك أنني أرتدي ثياب الخروج:

- أوه، هل كنتِ تنوين الخروج يا «هيلين»؟

- نعم، آل «دريلون» قاموا بدعوتي للعب البريدج، لكن يمكنني الاتصال بهم والاعتذار.

- لا حاجة إلى هذا، لا بأس.

- لا تقل لي لا بأس.. تكلم يا عزيزي.

- حسنًا، لقد تمكنت أخيرًا من القيام بالأمور بطريقة صحيحة، وكنت أريدك أن تكوني أول من يشهد المعجزة.

- مذهل! طبعًا يا «أندريه»، سأكون سعيدة للغاية.

اتصلت بجيراننا لأخبرهم كم أنا آسفة وإلى آخر هذا الهراء، ثم جريت للأسفل للمطبخ، وأخبرت الطاهية أن أمامها عشر دقائق بالضبط لتعد عشاءً احتفاليًّا.

- فكرة رائعة يا «هيلين».

قالها زوجي عندما ظهرت الخادمة تحمل الشامبانيا، بعد أن تناولنا عشاءنا على ضوء الشموع، سنحتفل بالشامبانيا!

أخذ الصينية من يد الخادمة، ثم قادني للأسفل حيث المعمل.

سألني وهو لا يزال يحمل الصينية، ويفتح الباب ويشعل الأنوار:

- أتظنين أنه سيبقى جيدًا كما كان قبل تحلله؟

- لا تخافي.. سترين! أيمكنك أن تحضريه هنا؟

قالها وهو يفتح باب كابينة التليفون الذي أحضره معه، والذي حوله لما يطلق عليه اسم الناقل.. ثم أضاف:

- ضعيه أرضًا على هذا الآن.

أغلق الباب في حرص، قبل أن يأخذني لنهاية الغرفة الأخرى ويناولني نظارة شمس غامقة للغاية.. ارتدى هو الآخر نظارة مماثلة، وعاد للوحة التحكم في الناقل.

- مستعدة يا «هيلين»؟

سألني زوجي وهو يطفئ جميع الأنوار، أكمل قائلًا:

- لا تنزعي النظارة قبل أن أخبرك.

- لن أفعل يا «أندريه»، استمر.

أجبته، وأنا أثبت عيناي على الصينية التي صارت تسبح في غلالة من الضوء الأخضر المتلألئ، والذي ظهر من خلال الباب الزجاجي لكابينة التليفون.

أجاب «أندريه»، وهو يضغط زر التشغيل:

حسنًا.

أنارت الحجرة بأكملها بومضة برتقالية لامعة، وبداخل الكابينة كان بوسعي رؤية كرة من النار تطقطق، وكان بوسعي الإحساس بحرارتها تلفح وجهي، ورقبتي، ويدي.. دام الموضوع بأكمله لجزء من الثانية، ثم وجدت نفسي أرمش بعيني في مواجهة نقاط سوداء بحواف خضراء مماثلين لهؤلاء الذين يراهم المرء بعد التحديق لوهلة في الشمس.

- هاك! يمكنك نزع النظارة الآن يا «هيلين».

وبطريقة مسرحية إلى حد ما فتح زوجي باب الكابينة، وعلى الرغم من أنه أخبرني بما ينتظرني؛ فإنني لم أتمالك نفسي من الذهول عندما وجدت أن الصينية بأكملها وما كانت تحمله من زجاجة شراب وأكواب قد اختفت بالكامل.

قادني «أندريه» مبتهجًا من يدي للحجرة المجاورة، والتي استقر في ركن منها كابينة تليفون أخرى، وعندما فتح بابها على وسعه، رفع صينية الشراب في انتصار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت بنفسي واحدة من ضمن جمهور عرض سحري، يدعوها الساحر للصعود على خشبة المسرح لمساعدته في العرض القادم. منعت نفسي من قول المزحة

الخالدة: «كل الخدع تمت باستخدام المرايا»، والتي كنت متأكدة من أنها ستزعج زوجي. سألته بينما سدادة زجاجة الشراب تنفتح:

- متأكد من أنه ليس خطيرًا أن نشرب منه؟

- طبعًا يا «هيلين».

أجابني وهو يناولني كأسًا. قال:

- لكن هذا لم يكن شيئًا. اشربي هذا ثم سأريكِ شيئًا أكثر إدهاشًا.

رجعنا للحجرة الأولى.

- أوه يا «أندريه»، أتتذكر «داندیلون» المسكين!

- ما سأستعمله الآن مجرد خنزير يا «هيلين»، لكنني متأكد من أنه سيعبر بسلام.

وضع خنزيرًا صغيرًا على أرضية الكابينة الخضراء، وأغلق الباب سريعًا. ارتديت نظارتي الغامقة، ورأيت وشعرت بالوميض القوي الذي صاحبه صوت طقطقة عالٍ.

دون أن أنتظر أن يقوم «أندريه» بفتح الباب، هرعت للحجرة الأخرى، حيث كانت الأضواء لا تزال ساطعة، ونظرت نحو كابينة الاستقبال.

- أوه، «أندريه» يا عزيزي! إنه بأحسن حال!

صرخت في حماس، وأنا أشاهد الحيوان الصغير وهو يتجول.

- عظيم يا «أندريه»، التجربة نجحت! لقد نجحت!

- أتمنى هذا، لكن يجب أن أكون صبورًا.. سأتأكد خلال بضعة أسابيع.

- ماذا تعني؟ انظر! الخنزير في أتم صحة كما كان عندما وضعته في الكابينة الأولى.

- نعم، هذا ما يبدو ظاهرًا لنا، لكن يجب أن أتأكد من كون كل أجهزته الداخلية تعمل ومضبوطة، وهذا سيحتاج إلى بعض الوقت.. لو ظل هذا الخنزير الصغير حيًّا شهرًا كاملًا، يمكننا إذًا اعتبار أن تلك التجربة نجحت.

توسلت لـ«أندريه» أن يدعني أعتني بالخنزير الصغير. وافق مبتسمًا من فرط حماسي.

- حسنًا، لكن لا تقتليه من كثرة الطعام.

على الرغم من أنني لم يكن مسموحًا لي أن آخذ «هوبالا» - الاسم الذي أعطيته للخنزير - خارج صندوقه الموجود بالمعمل؛ فقد قمت بربط ربطة وردية حول عنقه، وكان مسموحًا لي بإطعامه مرتين في اليوم.

اعتاد «هوبالا» على ربطته الوردية، وأصبح أليفًا نوعًا ما، لكن شهر الانتظار هذا بدا لي كسنة.. وفي أحد الأيام، قام «أندريه» بوضع «ميكويت» - كلبتنا من سلالة «كوكر سبانيول» - في جهاز الناقل.. لم يكن قد أخبرني قبلها طبعًا لأنه يعرف أنني مستحيل أن أوافق أن يقوم بإجراء تجربته على كلبتنا الأليفة.. لكن عندما أخبرني، كان قد تمكن بالفعل من نقلها بنجاح، ولستة مرات على الأقل، وقد بدا أن الكلبة تستمتع بالموضوع، لدرجة أنها بمجرد خروجها من جهاز الاستقبال، كانت تهرع للغرفة الأخرى نحو جهاز الإرسال وتبدأ في خربشة باب الجهاز بمخالبها، كأنها تطلب دورة أخرى من هذه اللعبة.

توقعت أن يقوم زوجي الآن بدعوة بعض زملائه وبعض الأخصائيين من وزارة الخارجية للقدوم.. كان هذا ما يفعله في العادة عندما ينتهي من مهمة أبحاث ما.

- لا يا «هيلين»، ليس قبل فترة طويلة، هذا الاكتشاف مهم للغاية، ولدي الكثير من العمل المتعب الذي يجب أن أقوم به قبل أن يتم الإعلان عنه.. هل تدركين أنه ما زالت هناك بعض الأجزاء من عملية الانتقال التي ما زلت لا أفهمها بالكامل أنا نفسي؟ صحيح أن العملية مرت بسلام، لكن لا يمكنني إخبار هؤلاء السادة بأنني أفعل كذا ثم كذا ثم، بوووف، لقد نجحت! يجب أن يكون بوسعي تفسير كيف ولماذا نجحت.. والأهم، أن أكون مستعدًا وقادرًا على كل جدال هدَّام سيقولونه كما يفعلون دومًا عندما يواجهون اكتشافًا جيدًا كهذا.

كان يدعوني بانتظام للمعمل لأشاهد التجارب الجديدة، لكنني لم أذهب قطُّ إلا إذا دعاني «أندريه»، ولم أكن أتناول عمله بالحديث إلا إذا فتح هو الموضوع أولًا.. لم يخطر لي نهائيًّا طبعًا أنه – في تلك المرحلة على الأقل - قد قام بإجراء تجربته على البشر، على الرغم من أنني عندما أفكر بالأمر، وخصوصًا أنني أعرف «أندريه» جيدًا، فالموضوع واضح جدًّا، هو لن يسمح لأحد بتجربة الناقل ما لم يجربه هو أولًا.. لم ألحظ إلا بعد الحادثة أنه قد قام بمضاعفة عدد المفاتيح داخل كابينة التفتيت، ليتمكن من تجربته على نفسه.

في الصباح الذي قام فيه «أندريه» بتلك التجربة البغيضة، لم يظهر للغداء، فأرسلت له الخادمة بالصينية، لكنها لم تلبث أن عادت بها، وهي تحمل ورقة ملصقة بباب المعمل من الخارج:

«لا أريد أي إزعاج، أنا أعمل..».

اعتاد أن يلصق ملحوظات مماثلة على بابه، وعلى الرغم من أنني لاحظت الخط الكبير الذى كُتبت به الملحوظة، على عكس عادته، فلم أعِر أهمية كبيرة للأمر.

كنت أحتسي قهوتي عندما دخل «هنري» على وهو يتمايل فخورًا، ويخبرني بأنه أمسك بذبابة غريبة الشكل، وسألني عمَّا إذا كنت أرغب في رؤيتها.. رفضت حتى أن أنظر لقبضته المغلقة، وأمرته بأن يحررها فورًا.

ماما، لكنها تملك رأسًا أبيض غريب الشكل!

وجهت الصبي للنافذة ليفتحها، وأمرته بأن يطلق الذبابة فورًا، وسمع كلامي.. عرفت أن «هنري» أمسك بالذبابة فقط لأنه ظن بأنها تبدو غريبة ومختلفة عن باقي الذباب، لكنني كنت واثقة من أن والده لن يشجِّع أي صورة من صور القسوة في معاملة الحيوانات، وإذا اكتشف أن ابنه كان يحبس ذبابة في صندوق أو في زجاجة، فلا بد سيفقد أعصابه.

وعندما حان موعد العشاء، دون أن يكون «أندريه» قد ظهر بعد، بدأت أشعر ببعض القلق، فهرعت للأسفل لمعمله وقرعت الباب.

لم يرد على طرقاتي، لكنني سمعته يتحرك بالداخل، وبعدها بلحظة دفع بورقة لي من أسفل عقب الباب، وكان مكتوبًا فيها:

«هيلين، أنا أواجه بعض المشكلات.. ضعي الصبي في فراشه وتعالي خلال ساعة..».

شعرت بالرعب، فطرقت الباب ثانية وناديته، لكن لم يبدُ على «أندريه» أنه يعيرني أي انتباه، طمأنتني أصوات الآلة الكاتبة الخاصة به المعتادة، فعدت للمنزل.

بعد أن وضعت «هنري» في فراشه، عدت للمعمل ثانية، حيث وجدت ملحوظة أخرى تنتظرني أسفل الباب. ارتجفت يداي بينما ألتقطها لأنني أيقنت لحظتها أن شيئًا ما ليس على ما يُرام.. قرأت:

«هيلين، أول شيء أحتاج لأن أعتمد عليكِ فيه هو ألا تفقدي أعصابك أو أن تفعلي أي شيء متسرع لأنك الوحيدة التي يمكنها مساعدتي.. لقد وقعت حادثة خطيرة لي.. لستُ في خطر معين في الوقت الحالي على الرغم من كونها مسألة حياة أو موت.. لن يكون ذا فائدة أن تناديني أو قول أي شيء.. ليس بوسعي الرد عليكِ، وليس بوسعي الحديث أصلًا.. أريد منك أن تفعلي كما سأخبرك بالضبط وبحرص شديد.. بعد أن تدقي على باب المعمل ثلاث دقات متتالية لأعرف أنك قرأتِ هذه الكلمات ووافقت عليها. اتركي لي طبقًا من الحليب المخلوط ببعض من شراب الروم، فأنا لم أتناول شيئًا طيلة اليوم ولن أتمكن من الاستمرار دون ما طلبته».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت أرتجف من الخوف، غير عالمة بما يجب أن أفكر فيه، وكبتُّ بكل صعوبة رغبة ملحة تصاعدت بداخلي لمناداة «أندريه» وعدم التوقُّف حتى يفتح الباب.. طرقت الباب ثلاث دقات كما طلب، وجريت عائدة للمنزل لأحضر ما طلبه.. في أقل من خمس دقائق كنت قد عدت، وكانت هناك ملحوظة أخرى تنتظرني تحت عقب الباب.. قرأت فيها:

«هيلين، تتبعي تلك الإرشادات بحرص، عندما تدقين سأفتح الباب، يجب أن تسيري حتى مكتبي وتتركي طبق الحليب عليه، قبل أن تذهبي للحجرة الأخرى حيث يوجد جهاز الاستقبال، وانظري جيدًا حتى تجدي ذبابة يجب أن تكون هناك

لكنني لم أتمكن من العثور عليها.. للأسف لم يعد بوسعي رؤية الأشياء الصغيرة بسهولة..

قبل أن تدخلي يجب أن تعديني بطاعتي طاعة كاملة.. لا تنظري لي وتذكري أن الحديث لم يعد ذا فائدة لأنني لم يعد بوسعي أن أرد عليكِ.. دقي ثلاث دقات لأتأكد من أنك توافقين على تنفيذ كل هذا.. حياتي تعتمد بالكامل على المساعدة التي يمكنك تقديمها لي».

اضطررت للانتظار لوهلة لأتمكن من التماسك، قبل أن أدق الثلاث دقات.. سمعت خطوات «أندريه» الثقيلة خلف الباب، ثم يده تتحسس القفل، وفتح الباب.

خارج نطاق بصري، رأيت أنه يقف خلف الباب، لكن دون أن أنظر حولي حملت طبق الحليب حتى مكتبه.. كان يراقبني طبعًا، لهذا بذلت أقصى جهد لدي لأبدو هادئة ومتماسكة.

- يمكنك الاعتماد عليَّ يا عزيزي.

تمتمت في هدوء، وبعد أن وضعت الطبق أسفل أباجورة مكتبه، والتي كانت الوحيدة المضاءة، سرت حتى الحجرة المجاورة حيث كانت كل الأنوار متألقة.

كان انطباعي الأول أن إعصارًا ما قد عصف بكابينة الاستقبال، فقد كانت الأوراق متناثرة في كل ركن، بينما استلقى صف كامل من أنابيب الاختبار محطمًا في ركن، وفي حين كانت الكراسي مقلوبة، وتدلت إحدى ستائر النافذة نصف مقطوعة من قضيبها الذى تقوس، ليستلقي طرفه في طبق من المينا واقع على الأرض فوق كومة من الملفات المحترقة التي كانت لا يزال يتصاعد منها الدخان.

عرفت أنني لن أجد الذبابة التي أراد مني «أندريه» أن أبحث عنها؛ فالنساء يعرفن أشياء لا يصل لها الرجال إلا عن طريق الاستدلال والمنطق.. نوع من المعرفة نادرًا ما تتوافر لديهم لهذا يسمونها حاسة سادسة.. كنت أعرف أنها الذبابة نفسها التي أمسك بها «هنري» والتي أمرته أن يطلقها.

سمعت «أندريه» يجر قدميه في الحجرة المجاورة، ثم سمعت صوتَ غرغرةٍ غريبًا وكأنه يواجه مشكلة في شرب اللبن.

- لا توجد ذبابة هنا يا «أندريه».. أيمكنك إعطائي أي إشارة يمكنها مساعدتي إذا لم يكن بوسعك الحديث، دق أو أي شيء، مرة واحدة لو «نعم»، مرتين لو «لا».

حاولت التحكم في صوتي لأبدو هادئة، لكنني احتجت لأن أكبت الكثير من دموع اليأس عندما وجدته يدق مرتين بمعنى أن إجابته:

- لا.

- أيمكنني أن آتي لك يا «أندريه»؟ لا أفهم ما يمكن أن يكون قد حدث لك، لكن مهما كان؛ فأعدك أنني سأكون شجاعة يا عزيزي.

بعد لحظة من التردد الصامت، دق مرة على مكتبه.

توقفت مذعورة لدى الباب لمرأى «أندريه» واقفًا وهو يغطي رأسه وكتفيه بقطعة القماش البنية التي أخذها من على المنضدة المجاورة لمكتبه، وهي المنضدة التي اعتاد أن يتناول طعامه عليها عندما لا يرغب في ترك عمله.. جاهدت لأكبت ضحكة يمكنها أن تتحول بسهولة لانفجار بالبكاء وأنا أقول:

- «أندريه»، سنفتش المكان جيدًا غدًا في ضوء النهار.. لمَ لا تذهب لفراشك؟ يمكنني أن أقودك لحجرة الضيوف لو أردت، ولن أدع أحدًا آخر يراك.

دقَّت يده اليسرى على المكتب مرتين.

- أتحتاج إلى طبيب يا «أندريه»؟

دق: «لا».

- أتريدني أن أتصل لك ببروفيسور «ايوجيير»؟ ربما يكون ذا فائدة أكبر لك.

دق مرتين في حدة بمعنى «لا»، لم أعرف ما يجدر بي قوله أو فعله، ثم قلت له:

- «هنري» أمسك بذبابة هذا الصباح وأراد أن يريني إياها، لكنني جعلته يطلقها.. أيمكن أن تكون تلك التي تبحث عنها؟ لم أرها، لكن الصبي يقول إن رأسها كان أبيض اللون.

أصدر «أندريه» صوتًا غريبًا معدنيًّا، واضطررت لأن أعض أصابعي لأمنع نفسي من الصراخ.. ترك ذراعه اليمنى تسقط، وعوضًا عن يده المعتادة الطويلة الأصابع والممتلئة بالعضلات، أصبحت هناك عصا رمادية ببراعم صغيرة عليها، مثل فرع شجرة تتدلى من كتفه وتصل حتى ركبتيه.

- عزيزي «أندريه»، أخبرني ما حدث، ربما أتمكن من أن أصبح ذات عون أكبر لك لو عرفت.. «أندريه».. أوه، هذا فظيع..

بكيت، غير قادرة على التحكم في نفسي أكثر من هذا.

دق مرة بمعنى «نعم»، قبل أن يشير للباب بيده اليسرى.. خرجت وانفجرت بالبكاء بينما هو يغلق الباب من خلفي، وأخذ يكتب على الآلة الكاتبة ثانية، بينما أنا أنتظر.. وأخيرًا اندفعت ورقة من أسفل الباب..

«عودي في الصباح يا «هيلين»، يجب أن أفكر، وسأكون قد كتبت لك تفسيرًا.. خذي واحدة من أقراص المنوم الخاصة بي واذهبي للفراش مباشرة.. أحتاجك لأن تكوني منتعشة وقوية غدًا يا عزيزتي».

صرخت من خلال الباب:

- أتحتاج إلى أي شيء مني الآن يا «أندريه»؟

دق مرتين بمعنى «لا»، قبل أن أسمع صوت الآلة الكاتبة ثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيقظتني أشعة الشمس التي تساقطت على وجهي.

كنت قد قمت بضبط المنبه على الخامسة، لكنني لم أسمعه، غالبًا بسبب أقراص المنوم.. نمت دون أحلام.. الآن عدت لكابوسي اليومي، وخرجت من فراشي باكية كأنني طفل.. كانت السابعة!

هرعت للمطبخ، غير مبالية بالخدم الذين فوجئوا بي، وأعددت سريعًا بعض القهوة، وخبز، وبعض الزبد، وهرعت بحملي هذا للأسفل حيث المعمل.

فتح «أندريه» الباب بمجرد أن طرقت، وأغلقه خلفي ثانية، بينما أنا أتجه بحملي نحو مكتبه. لاحظت أن رأسه لا يزال مغطى، لكنني تمكنت من رؤية جزء من سترته المتجعدة، وفراش المخيم الخاص به الذي كان مفتوحًا، مما يدل على أنه حاول أن ينال قسطًا من الراحة ولو للحظات معدودة.

على مكتبه استلقت ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة تنتظرني، فالتقطتها.. فتح «أندريه» الباب، مما يعني أنه يريد أن يبقى بمفرده، فاتجهت للحجرة المجاورة، وسمعت صوت القهوة يتم صبها بعدما أغلق الباب الفاصل بين الحجرتين.. أخذت أقرأ:

«أتتذكرين تجربة منفضة السجائر؟ حدثت لي حادثة مشابهة! نقلت نفسي بنجاح الليلة قبل الماضية.. لكن في أثناء قيامي بالتجربة ثاني مرة بالأمس، دخلت ذبابة دون أن أنتبه لجهاز التفتيت.. أملي الوحيد يكمن في العثور على تلك الذبابة وخوض التجربة ثانية معها.. أرجوكِ أن تبحثي عنها بعناية لأننا لو لم نجدها؛ فسأضطر للعثور على وسيلة لأنهي كل هذا!».

لو كان «أندريه» أكثر صراحة منذ البداية!

ارتجفت لخاطر أنه تشوه بشدة، ثم انهمرت دموعي الصامتة عندما تمثل شكله في ذهني ووجهه مقلوب، أو ربما صارت عيناه مكان أذنيه، أو أصبح فمه في مؤخرة عنقه، أو ربما حدث ما هو أسوأ!

- يجب أن يتم إنقاذ «أندريه»! وليحدث هذا يجب العثور على تلك الذبابة!

حاولت تمالك نفسي وأنا أقول:

- أيمكنني الدخول يا «أندريه»؟

فتح الباب.

- لا تيأس يا «أندريه»، لأنني سأعثر على تلك الذبابة، صحيح أنها لم تعد في المعمل، لكن لا يمكن أن تكون قد ابتعدت كثيرًا.. سأفترض أنك تشوهت، ربما بشدة، لكن لا يمكنك التفكير في احتمالية إنهاء كل شيء كما قلت في رسالتك، لأنني لن أتحمل هذا.. لو صار الأمر ضروريًّا ولا تريد أن يراك أحد، يمكنني صنع قناع أو قلنسوة لتتمكن من الاستمرار في عملك حتى تتحسن ثانية.. لو لم

يعد بوسعك العمل، يمكنني الاتصال ببروفيسور «أيوجيير»، وسيتمكن هو وبقية أصدقائك من إنقاذك يا «أندريه».

وسمعت ثانية ذلك الصوت المعدني الغريب، بينما ارتفعت دقاته العنيفة على سطح مكتبه.

- لا تنزعج يا «أندريه»، أرجوك أن تهدأ.. لن أفعل أي شيء قبل أن أستشيرك، يجب أن تعتمد عليَّ، ثق في ودعني أساعدك، وسأبذل أقصى ما لدي من مجهود.. هل تشوهت بشدة يا عزيزي؟ ألا يمكنك أن تدعني أرى وجهك؟ لن أذعر، فأنا زوجتك كما تعرف.

لكن زوجي دق ثانية بعنف بمعنى «لا»، وأشار نحو الباب.

- حسنًا، سأبحث عن الذبابة الآن، لكن عدني بأنك لن تفعل أي شيء متهور أو خطير دون أن تخبرني بما تنتويه!

مد يده اليسرى، ففهمت أنني حصلت على وعد منه بما طلبت.

لن أنسى أبدًا رحلة الصيد التي استمرت طيلة اليوم من أجل العثور على الذبابة.. قلبت المنزل رأسًا على عقب، وأشركت الخدم جميعهم في البحث، أخبرتهم أن هناك ذبابة هربت من معمل زوجي، ويجب أن يتم العثور عليها حية، لكن كان واضحًا أنهم ظنوا أنني مجنونة.. هذا هو ما قالوه للشرطة فيما بعد على أية حال، وأظن أن البحث عن الذبابة هذا هو ما أنقذني من المقصلة فيما بعد.

سألت «هنري»، لكنه لم يتمكن من فهم ما أتحدث عنه، هززته بقوة وصفعته وجعلته يبكي أمام عيون الخدم المصعوقة.. وعندما أدركت أنني يجب أن أتحكم في نفسي قليلًا، قبَّلت الصبي المسكين وربَّت عليه، وأخيرًا أفهمته ما أريده بالتفصيل.. نعم، تذكَّر أنه وجد الذبابة قبلًا بالقرب من نافذة المطبخ، ونعم، لقد حررها على الفور كما أمرته أنا وقتها!

حتى في الصيف لم يكن بمنزلنا الكثير من الذباب لأنه على قمة تل، وأقل نسمة هواء آتية من الوادي ستعصف بهم تمامًا.

وبالرغم من هذا، فقد تمكنت من إمساك دستة ذباب على الأقل ذلك اليوم.. على كل عتبات النوافذ وبالحديقة كلها قمت بوضع صحون مليئة باللبن، والسكر، والمربى، واللحم.. كل أنواع الطعام التي يمكن أن تجتذب الذباب.. لكن الذبابة المختارة التي أمسكها «هنري» قبلًا لم تكن بين كل الذباب الذي اصطدناه يومها.. كنت أدقق في تفاصيل كل واحدة نمسكها باستخدام عدسة مكبرة، وكل ذبابة غير معتادة كانت تجتذب انتباهي، لكن ولا واحدة منهم كانت ذات رأس أبيض.

في موعد الغذاء هرعت لـ«أندريه» حاملة بعض اللبن وبعض البطاطس المهروسة، كما أخذت بعض الذباب الذي أمسكناه، لكنه شرح لي أنهم لن يفيدوه بشيء.

- لو لم نعثر على تلك الذبابة الليلة يا «أندريه»، يجب أن نقرر ماذا سنفعل.. وهذا هو ما أفكر فيه: سأجلس في الحجرة المجاورة، وعندما لا يكون بوسعك أن تجيبني بنعم ولا عن طريق الدق المعتاد، ستقوم بكتابة ما تريد أن تخبرني به على الآلة الكاتبة.. اتفقنا؟

دق «أندريه» مجيبًا:

- نعم.

بحلول الليل لم نكن قد عثرنا على الذبابة بعد.. وحين أتى موعد العشاء، وبينما كنت أعد صينية «أندريه»، انهرت باكية في المطبخ أمام الخدم الصامتين.. ظنت وصيفتي بأنني تشاجرت مع زوجي، ربما بسبب موضوع الذبابة المفقودة، لكنني عرفت فيما بعد أن الطاهية كانت واثقة في تلك اللحظة بأنني جننت تمامًا.

ودون كلمة، التقطت الصينية واتجهت بها لأسفل، عندما توقفت بجانب التليفون.. كان موضوع حياة أو موت بالنسبة إلى «أندريه» حقًّا، لم يكن لدي شك في هذا.. كما لم يكن لدي شك في أنه ينتوي الانتحار، إلا إذا تمكنت من جعله يغير رأيه، أو على الأقل أستطيع أن أزيح هذا القرار الكارثي من عقله.

هل سأكون قوية بما فيه الكفاية؟ لن يسامحني أبدًا لو أخلفت وعدي معه، لكن في ظل الظروف الراهنة، هل يهم هذا حقًّا؟ سحقًا للوعود ولكلمة الشرف! يجب أن يتم إنقاذ «أندريه» بأي ثمن! وهذا الخاطر جعلني أقرر أن أتصل ببروفيسور «أيوجيير»!

- البروفيسور بالخارج ولن يعود قبل نهاية الأسبوع.

كذا رد على خادم مهذب على الجهة الأخرى من التليفون.

هذه هي النهاية إذًا! سأضطر لأن أحارب بمفردي، وسأفعلها! سأنقذ «أندريه» بأي طريقة.

اختفت كل عصبيتي بمجرد أن سمح لي «أندريه» بالدخول، وبعدما وضعت صينية الطعام على مكتبه، ذهبت للحجرة الأخرى كما اتفقنا. تمتمت بينما هو يغلق الباب خلفي.

- أول شيء أريد أن أعرفه هو ما حدث بالضبط.. أيمكنك أن تشرح لي يا «أندريه»؟ أرجوك ؟

انتظرت في صبر بينما بدأ هو يكتب إجابته على الآلة الكاتبة، ثم دفعها لي من أشفل الباب بعد لحظات:

«أفضِّل عدم الإفصاح عن هذا يا «هيلين»، بما أنني سأرحل على أية حال، أفضل أن تتذكريني كما كنت قبل ما حدث.. يجب أن أدمر جسدي بشكل يجعل من المستحيل معرفة ما أصابني.. فكرت طبعًا في تفتيت نفسي في جهاز الناقل الخاص بي، لكنني أفضل عدم فعلها لأن عاجلًا أو آجلًا، ربما أجد نفسي تكونت

مرة أخرى.. يوم ما، في مكان ما، ربما يتمكن عالم ما من التوصل للاكتشاف نفسه، لهذا فكرت في طريقة ليست بالسهلة ولا بالبسيطة، لكنك ستساعديني فيها كما رغبتي!».

لدقائق معدودة تساءلت عمَّا إذا كان «أندريه» قد تملكه جنون مفاجئ.

- «أندريه».. مهما كان الشيء الذي فكرت فيه أو اخترته، فمستحيل أن أوافقك على مثل هذا الحل الجبان.. مهما كانت نتيجة تجربتك أو حادثتك مريعة، لكنك لا تزال حيًّا.. ولديك روح.. ليس لديك الحق في تدمير نفسك! أنت تعرف هذا أصلًا!

سرعان ما خرجت لي إجابته من تحت عقب الباب:

«أنا حي فعلًا، لكنني لم أعد رجلًا، وبالنسبة إلى ذكائي أو عقلي، فربما يختفيان في أي لحظة.. فهما لم يعودا متماسكين كما كانا قبلًا، وليس هناك وجود للروح دون هذا الذكاء، وأنت تعرفين هذا جيدًا!».

- إذًا يجب أن تخبر العلماء الآخرين عن اكتشافك، سيتمكنون من مساعدتك وإنقاذك يا «أندريه»!

تراجعت للوراء في ذعر عندما دق الباب بغضب مرتين.

- لماذا يا «أندريه»؟ لماذا ترفض المساعدة التي تعلم أنهم سيقدمونها لك بكل تفانٍ؟

دستة من الدقات الغاضبة هزت الباب جعلتني أوقن بأن زوجي لن يقبل هذا الحل أبدًا.. يجب أن أجد طرق أخرى لمجادلته لأكسب وقتًا.

مر الوقت كأنه ساعات.

أخذت أحدثه عن ابننا، عني، وعن عائلته، وعن واجبه تجاهنا وتجاه باقي البشرية، لكنه لم يجب بأي شيء.. في النهاية صرخت باكية:

- هل تسمعني يا «أندريه»؟

دق بنعومة: «نعم».

- حسنًا، اسمعني إذًا، لدي فكرة أخرى.. أتتذكر تجربتك الأولى مع منفضة السجائر؟ حسنًا، أتظن أنك لو وضعتها ثانية، يمكن أن تخرج هذه المرة بحروفها سليمة؟

قبل أن أنتهي من كلماتي كان «أندريه» قد انشغل بالفعل في الكتابة على آلته الكاتبة، وبعد لحظة كنت أقرأ إجابته:

«لقد فكرت في هذا بالفعل، ولهذا السبب أردت الذبابة... يجب أن تدخل الآلة معي.. لا يوجد أمل غير هذا على الإطلاق».

- جرِّب على أية حال يا «أندريه»، من يعرف!

وكان الرد الذي تلقيته مكتوبًا:

«لقد جربت سبع مرات بالفعل!».

- جرب ثانية يا «أندريه»، أرجوك!

أعطتني إجابته هذه المرة بعض الأمل، لأنه لا توجد امرأة فهمت، أو ستفهم، كيف يمكن لرجل موشك على الموت أن يجد شيئًا ما مسليًا.

«أنا معجب حقًّا بمنطقك الأنثوي اللذيذ، يمكننا أن نظل نقوم بتلك التجربة حتى يوم الدينونة، لكن، وحتى أعطيك هذا الشعور بالسعادة، والذي سيكون غالبًا آخر شيء يمكنني منحه لكِ، سأجرِّب مرة أخيرة.. لو لم يكن بإمكانك العثور على نظارتك السوداء فأعطي ظهرك للآلة واضغطي بيديك على عينيكِ. أخبريني عندما تكوني مستعدة».

- أنا مستعدة يا «أندريه»!

صرخت دون أن أحاول حتى البحث عن النظارات، واتبعت تعليماته.

سمعته يتحرك في أرجاء المكان، ثم يفتح ويغلق باب الجهاز، وبعد فترة انتظار بدت لي طويلة للغاية، لكنها على الأرجح لا تتعدى دقيقة أو ما شابه، سمعت صوت ضوضاء شديدة، وشعرت بوهج لامع يمر من خلال جفني وأصابعي.

التفت بينما باب الكابينة ينفتح.. كان رأسه وكتفه لا يزالان مغطيين بقطعة القماش تلك، بينما هو يخرج في حذر.

سألته وأنا ألمس ذراعه:

كيف تشعر يا «أندريه»؟ أي اختلاف؟

حاول أن يبتعد عني، فتعثرت قدمه في إحدى الآلات التي لم أكلف نفسي عناء إبعادها. بذل جهدًا رهيبًا ليحافظ على توازنه، وانسحبت قطعة القماش قليلًا عن كتفيه ورأسه بينما هو يسقط بكل ثقله للوراء.

كان الرعب أكثر مما يمكنني تحمله، والأسوأ أنه لم يكن متوقعًا على الإطلاق.. في الحقيقة، أنا متأكدة من أنني حتى لو كنت أعرف ما ينتظرني، فإن التأثير المرعب لم يكن ليقل مثقال ذرة.. رفعت يدي الاثنتين نحو فمي لأكتم الصرخة التي كانت على وشك الإفلات مني، وعلى الرغم من هذا، فقد صرخت بكل قوتي.. لم أستطع إبعاد عينَي عنه، ولم يكن بإمكاني غلقهما حتى.. وعرفت أنني لو نظرت لهذا المنظر المرعب لأكثر من هذا، فلن أتوقف عن الصراخ لبقية حياتي.

ببطء، غطى ذلك الوحش، الذي كان يومًا ما زوجي، رأسه، ونهض، ومر عبر الباب.. وعلى الرغم من كوني ما زلت أصرخ، فقد تمكنت أخيرًا من إغلاق عينَي.

لطالما كنت مسيحية كاثوليكية قويمة، ودومًا كنت أؤمن بوجود الرب وبوجود حياة أخرى أفضل، لكن اليوم لم يعد لدي إلا أمل واحد، أنني عندما أموت، أموت حقًّا.. فلا أريد أن أُبعث ثانية ولا أن أحظى بحياة أخرى من أي نوع، لأنني عرفت أنني لو حظيت بحياة أخرى، فلن أنسى ما رأيته للتو! ليلًا ونهارًا، مستيقظة أو نائمة، سأرى المشهد نفسه وسأظل أراه! عرفت أنني محكوم علي برؤيته للأبد، وربما حتى يطويني النسيان! وحتى يتحلل جسدي بالكامل، فلا شيء بإمكانه أن يجعلني أنسى منظر هذا الرأس الأبيض المشعر البشع، بجمجمته المسطحة المنخفضة وأذنيه المدببتين.. أو أنفه الوردي الرطب المشابه لأنف القطط.. القطط الضخمة! لكن أسوأ شيء كان العينين، أو المكان الذي يفترض وجود العينين فيه، حيث حل محلهما نتوءان بنييان بحجم صحون الطعام.

وعوضًا عن الفم، أصبح هناك شق طويل مشعر، تدلى منه جذع أسود يتسع في نهايته، كأنه بوق غريب المظهر، والذي تساقط اللعاب منه طيلة الوقت.

لا بدَّ أنني فقدت الوعي، لأنني استيقظت لأجد نفسي مستلقية على بطني، على أرضية المعمل الأسمنتية الباردة، محدقة في الباب المغلق الذي سمعت من خلفه دقات آلة «أندريه» الكاتبة. شعرت بنفسي مخدرة.. مخدرة وفارغة.

لا بدَّ أنني بدوت كما يبدو الناس بعد حادثة شنيعة، قبل أن يفهموا بالكامل ما حدث.. لم أستطع إلا أن أفكر في رجل رأيته مرة واحدة على رصيف محطة قطار. كان واعيًا إلى حد ما، لكنه ظل ينظر في بلاهة لساقه الموجودة على الخط الذي عبره القطار للتو.. كان حلقي يؤلمني بشدة، وهو ما دفعني للتساؤل عمَّا إذا كانت أحبالي الصوتية قد تمزقت، وعمَّا إذا كان سيصبح في إمكاني الحديث مرة أخرى.

توقف صوت الآلة الكاتبة فجأة وشعرت بأنني سأصرخ ثانية عندما شعرت بشيء يلامس الباب، قبل أن تنزلق ورقة من أسفله.

كنت أرتجف من الرعب ومن الاشمئزاز، لكنني زحفت حتى مكان الورقة لأتمكن من قراءتها دون لمسها:

«الآن تفهمين، تلك التجربة الأخيرة كانت كارثة جديدة.. عزيزتي «هيلين» المسكينة، أفترض أنك ميزت جزءًا من رأس «دانديلو» القطة، عندما دخلت المفتت أمامك منذ لحظات. كان رأسي مجرد رأس ذبابة، لكن الآن صار لدي عيناها وفمها فقط، بينما تم تبديل الباقي بأجزاء من رأس القط «دانديلو» المسكين الذي لم تتماسك جزيئاته معًا قط.. الآن تصدقين كلامي بعدم وجود إلا مخرج واحد منطقي من كل هذا، صح؟ يجب أن أختفي.. دقي الباب عندما تكونين مستعدة، وسأشرح لكِ ما ستفعلينه!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان محقًّا، وكان غباءً وقسوة مني أن أصر على التجربة الجديدة.. وأيقنت الآن بعدم وجود مخرج ممكن آخر، وأن المزيد من التجارب لن تجلب إلا نتائج أسوأ.

قمت من مكاني مترنحة، واتجهت صوب الباب وحاولت التحدث، لكن لم يخرج أي صوت من حلقي.. لهذا دققت الباب مرة واحدة!

يمكنك طبعًا أن تستنتج الباقي.. شرح لي في ورقة أخرى من آلته الكاتبة، في هيئة ملحوظات صغيرة، خطته وأنا وافقت.. كنت مستعدة للموافقة على أي شيء!

كان رأسي يشتعل، لكنني في الوقت نفسه ارتجفت من البرد، كأنني إنسانًا آليًا.

تبعته للمصنع الصامت، وفي يدي صفحة كاملة من الشرح، تحتوي على كل ما يجب أن أعرفه لتشغيل المطرقة.

دون أن يتوقف أو ينظر للوراء، أشار نحو لوحة قيادة تتحكم في المطرقة بينما هو يمر بجانبها.. بقيت بجانب اللوحة، وراقبته بينما هو يسير مترنحًا نحو الآلة الرهيبة.

انحنى لأسفل، ولف السجادة بإحكام حول رأسه، ثم استلقى على الأرض على ظهره.

لم يكن الأمر صعبًا.. لم أكن أقتل زوجي «أندريه».. «أندريه» المسكين قد انتهى منذ زمن طويل، شعرت بأنه رحل عني منذ سنين طويلة.. كنت أنفِّذ رغبته الأخيرة.. ورغبتي!

دون تردد، وبينما عيناي ترمقان الجسد الطويل الساكن، ضغطت بقوة على زر توجيه الضربات، فبدأت الكتلة المعدنية الثقيلة في التحرك ببطء، لم يكن الطرق المدوي للمكبس هو الذي آثار ذعري، وإنما صوت التهشم الشديد الذي سمعته في اللحظة نفسها.

ارتجف جسد زو.. أقصد جسد ذلك الشيء لثانية، قبل أن يهمد للأبد..

هنا لاحظت أنه نسي وضع ذراعه اليمنى - التي أصبحت ساق ذبابة - تحت المطرقة.. لن تفهم الشرطة أبدًا، لكن العلماء سيفهمون ما حدث، وهذا لا يجب أن يحدث! كانت هذه رغبة «أندريه» الأخيرة كذلك!

كان يجب أن أفعلها سريعًا.. فلا بدَّ أن الحارس الليلي قد سمع المطرقة ولا بدَّ أنه سيأتي في أية لحظة للتحقق من الأمر.. ضغطت الزر الآخر فارتفعت المطرقة في بطء، حاولت ألا أدقق النظر وأنا أهرع لأرفع الذراع اليمنى، والتي كانت خفيفة للغاية، وأحركها.. عدت للوحة التحكم ثانية، وضغطت الزر الأحمر مرة أخرى، ونزلت المطرقة ثانية، ثم جريت عائدة للمنزل.

أنت تعرف الباقي، الآن افعل ما تظنه صحيحًا».

هكذا أنهت «هيلين» خطابها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

V

اتصلت بالمحقق «كاراس» في اليوم التالي لأدعوه للعشاء.

- بكل امتنان، مسيو «ديلامبر».. اسمح لي فقط أن أسألك، هل تدعوني بصفتي المحقق «كاراس»، أم فقط مسيو «كاراس»؟

- أيهما تفضِّل أنت؟

- لا أفضل إحداهما على الأخرى في هذه اللحظة.

- حسنًا إذًا، اعتبرني ما يناسبك أنت.. هل ستكون الساعة الثامنة مناسبة لك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعلى الرغم من المطر، وصل المحقق على قدميه ذلك المساء..

- بما أنك لم تأتِ في سيارتك السيتروين، سأفترض أنك قررت المجيء بصفتك مسيو «كاراس»، وأنك لست هنا بصفتك العملية، صح؟

تركت سيارتي عند الناصية.. تمتم المحقق مبتسمًا بينما الخادمة تتعثر حاملة معطف المطر الثقيل الخاص به.

- ميرسي.

شكرني وهو يتناول مني كأسًا من شراب «برنو»، قبل أن يسقط فيها بضع قطرات من الماء، ليتحول السائل الذهبي اللون كالكهرمان للون الحليب الأبيض.

- هل سمعت بما حدث لنسيبتي المسكينة؟

- نعم، بعد أن تحدث إليَّ عبر الهاتف بقليل هذا الصباح.. أنا آسف للغاية، لكن ربما كان ما حدث هو أفضل نهاية ممكنة، فمع مسؤوليتي الكاملة عن التحقيق في موت أخيك، وصلني الخبر على الفور.

- أفترض أنه كان انتحارًا؟

- دون شك.. سيانيد، كما يقول الأطباء بكل ثقة، كما أنني عثرت على قرص ثانية مخبأ في ردائها.

- مسيو، العشاء جاهز.

أعلنت الخادمة.

- بعد العشاء أريد أن أريكِ ملفًا مثيرًا للاهتمام يا «كاراس».

- آها، نعم.. سمعت أن مدام «ديلامبر» كانت تقضي معظم وقتها بالكتابة، لكن لم نتمكن من العثور على أي شيء بحجرتها غير ملحوظة الانتحار القصيرة.

في أثناء تناول العشاء، تحدثنا عن السياسة، والكتب، والأفلام، وكرة القدم المحلية التي كان يشجعها المحقق كثيرًا.

بعد العشاء أخذته لمكتبي، حيث كانت تنتظرنا شعلة مدفأة كبيرة، وهي عادة التقطتها من إنجلترا وقت الحرب..

دون أن أسأله، ناولته كأسًا من البراندى، ومزجت لنفسي ما يدعوه هو مزيج من «عصير الحشرات» ومياه الصودا، أو كما نعرفها نحن، الويسكي.

- أريدك أن تقرأ هذا يا «كاراس»، أولًا، لأنها كانت موجهة بشكل ما لك، وثانيًا: لأنها ستثير اهتمامك. ولو لم يكن لدى المحقق «كاراس» اعتراض، فسأطلب منك أن تحرقها بعد قراءتها.

دون كلمة تناول حزمة الأوراق التي أعطتني إياها «هيلين» البارحة، وجلس يقرأهم.

- ما رأيك في كل هذا؟

سألته بعد عشرين دقيقة وأنا أراه يطوي مخطوطة «هيلين» بحرص، ويضعها في مظروف بني، ثم يرميها في النيران.

راقب «كاراس» النيران وهي تتحسس المظروف، لتتصاعد منه سحب من الدخان الرمادي هاربة.. وعندما بدأ المظروف نفسه في الاحتراق، رفع عينيه في بطء ناظرًا نحوي وهو يقول:

- أظن أن هذا إثبات كافٍ أن مدام «ديلامبر» كانت مختلة إلى حد ما.

لوهلة بقينا نتأمل النيران وهي تلتهم اعتراف «هيلين».

- هناك شيء غريب حدث لي هذا الصباح يا «كاراس»، لقد ذهبت للمدافن، حيث يستريح أخي، وكان المكان خاليًا وكنت بمفردي.

- لم تكن بمفردك بالكامل يا مسيو «ديلامبر»، فقد كنت هناك، لكنني لم أرد إزعاجك.

- إذًا فقد رأيتني.

- نعم، رأيتك وأنت تدفن علبة الثقاب.

- أتعرف ماذا كان بداخلها؟

- ذبابة غالبًا، صح؟

- نعم، وجدتها هذا الصباح، كانت عالقة بين خيوط شبكة عنكبوت في الحديقة.

- كانت ميتة؟

- لا.. ليس تمامًا.. لقد سحقتها.. بين حجرين.. رأسها كان أبيض.. أبيض بالكامل..

تمت الترجمة بمعرفة: محمد عبد العزيز([4])

المؤلف:

جـورج لانـجـيـلان:

كاتب وصحفي وجاسوس فرنسي، وُلد في باريس عام 1908م، انضم - خلال الحرب العالمية الثانية - إلى العمليات الخاصة (SOE) لقوات الحلفاء. يمكن للقارئ استكشاف هذا الجانب الشيق من حياته، عبر مطالعة المذكرات الشخصية التي نشرها عام 1959م، تحت عنوان «أقنعة الحرب».

صدرت أغلب أعماله الأدبية – عمومًا - خلال عقدي الخمسينيات والستينيات، أشهرها على الإطلاق قصة «الذبابة» 1957م، والتي بُني على فكرتها فيلمين سينمائيين بالاسم نفسه في عامي 1958م و1986م.

أُسدل الستار على حياة لانجيلان، عن عمر يناهز الرابعة والستين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحفة سينمائية - غالبًا - لن تحب مشاهدتها مرتين

ياسين أحمد

The Fly (1986):

قبل عام، لم أكن قرأت النص الأصلي، ولا شاهدت أيًّا من الأفلام المستوحاة عنه. معلوماتي عن كلاهما اقتصرت على سطر عابر قرأته في مكان ما، يلخص الفكرة، بقوله: «عالم اخترع كابينة للانتقال الآني، جربها على نفسه، تصادف أن وُجدت معه ذبابة في الحيز نفسه، فاختلطت جزيئاتهما معًا».

ظننت أن الأحداث هكذا احترقت تمامًا بالنسبة إليَّ، فليس هناك ما يجذب لقراءة القصة بعد ذلك، لكن رأيي تغير تمامًا بمجرد أن انتهى عبد العزيز من ترجمة الفصل الأول. وجدت فيه ما يبعث على الاستمتاع والفضول، خصوصًا مع الغموض الذي أطل برأسه منذ اتصال زوجة المخترع، فظل عقلي يحاول ملء الفجوة الناقصة فيما يخص:

- كيف سيمد المؤلف خط (المكالمة، سحق الزوج)، حتى يصل بنا من خلاله إلى تفاصيل (الاختراع، الامتزاج مع الذبابة)؟

لم يخب ظني، إذ سارت الأحداث بوتيرة الغموض الممتع/المقبض نفسها، حتى آخر سطر. (ضع أكثر من خط تحت «آخر سطر»).

على الجانب الآخر، ذكرتني شخصية (شقيق المخترع) – مباشرة - بـ«رفعت إسماعيل»، الطابع الملول نفسه، والذي لا يخلو من سخرية مبطنة. نجح المؤلف في شد الانتباه بها منذ الصفحة الأولى، قبل أن ينجح المؤلف في خلق شخصيات منافسة في الجاذبية، ما بين المحقق الذكي الذي يجيد قراءة ما بين السطور، والأرملة التي تضمر أسرارًا وصراعًا نفسيًّا عاتيًا، يختفيان وراء صلابتها الظاهرية.

نلاحظ أيضًا أن «لانجيلان» أجاد استخدام كل أدوات (الأسلوب السينمائي): الحوار، تقطيع المشاهد، الوصف الثري بالتفاصيل البصرية.

لذلك، خمنت أن المخرج «ديفيد كروننبرج» لن يجد معالجة أفضل، مما يعني أن السناريو سيتلزم بخط الأحداث الموجود في القصة.

عندما شاهدت الفيلم – بعدها - اتضح أنني كنت مخطئًا للمرة الثانية، إذ وجدت أن مساحة التشابه بين (الأصل الأدبي/ النسخة السينمائية) تقتصر على الملخص العام، المذكور في أول فقرة بالمقال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انحاز الفيلم إلى مدرسة كلاسيكية في التعامل مع المسار الزمني للأحداث، بدأت بالماضي، ثم الحاضر، فالمستقبل. أمَّا النص الأصلي، فقد انتقل بالقارئ – مباشرة - إلى مستقبل الاختراع وصاحبه، ثم استخدم تقنية «الفلاشباك»، وعاد بنا

إلى البداية من خلال خطاب الأرملة. هذا بالتحديد ما يجعلني أجرؤ على القول إن: «النص الأصلي عالج الفكرة بطريقة أكثر سينمائية من الفيلم ذاته».

مُجملًا، عند تصميم حبكات الخيال العلمي أو الفانتازيا بالذات، توجد ثلاث طرائق قد يتم الاحتياج إلى أحدها، لتعريف الجمهور بطبيعة وقوانين العالم الذي سيدخله:

1. الطريقة الأقرب للأفلام الوثائقية، عندما يتم افتتاح العمل من خلال ملخص يوضح خلفية القصة، يصاحبه صوت (مورجان فريمان)، الذي يخاطب المشاهد مباشرة، على غرار: «في زمن بعيد.. بعيد، في مجرة بعيدة.. بعيدة).

2. الاعتماد على شخصية قادمة من الخارج، أي تجهل التفاصيل مثلها مثل الجمهور، فيكون من المنطقي أن تطرح أسئلة كثيرة، فتكون هي المفتاح الذي يجعلنا معًا - هي ونحن - نحصل على إجابات وافية.

3. الإفصاح عن كل شيء – تدريجيًّا - بطريقة ضمنية من خلال سياق الأحداث، وهي الطريقة الأفضل والأكثر جاذبية من وجهة نظري.

أو دعوني أتحفظ على استخدام كلمة (الأفضل)، إذ لا تعلمنا أن نتحاشى – قدر الإمكان - استخدام كلمات على وزن (أفعل) في أثناء الحديث عن الأدب أو الفن، على غرار (أقوى، أنجح، أسوأ، إلخ). على الجانب الآخر، ربما توجد حبكات أعمال معينة، لا يناسبها سوى بساطة (السهل الممتنع) الذي تتميز به الطريقة الثانية، أو حتى الأولى.

حتى بفرض التسليم أن الثالثة هي (الأفضل) بالفعل، على مستوى معالجة القصة، لربما يتفوق المبدع على نفسه في بقية العناصر، مما يجعل مُجمل الفيلم (متفردًا).

هذه الحالة تنطبق أكثر ما يكون على «الذبابة»، حيث صدرت عدة معالجات سينمائية لها، الأولى عام (1958م) التزمت – كثيرًا - بمسار الأحداث الموجود في القصة، على عكس الثانية التي أُنتجت عام (1986م)، ومع ذلك فإن الأخيرة التي أخرجها وشارك في كتابتها «ديفيد كروننبرج» هي التي نالت إشادات الجمهور والنقَّاد على حدٍ سواء، إلى جوار تحقيقه 60 مليون جنيه في شبَّاك التذاكر، لن ندرك حجم الإنجاز الذي يمثله الرقم، إلا عندما نعلم أن تكلفة إنتاج العمل لم تزد على عشرة ملايين دولار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قام سيناريو «الذبابة: 1986م» بحذف أغلب شخصيات القصة (الشقيق، المحقق، الابن، الزوجة، إلخ)، استحدث بدلًا منها مجموعة مغايرة، أبرزهم الصحفية «فيرونيكا» التي ظهرت منذ أول دقيقة من الفيلم، تدردش في أثناء الحفلة مع المخترع «سيث براندن».

كانت هذه الافتتاحية «فعالة» لو جاز لي التعبير، حيث نابت «فيرونيكا» عنَّا – كمشاهدين - في طرح كل الأسئلة المندهشة عن (الانتقال الآني)، فعرفنا – سريعًا - كل الخطوط العريضة عن الجهاز ومخترعه اللذين سيتمحور حولهما بقية

الأحداث، لكن هذا الجزء - من وجهة نظري – يعاني من اللامنطقية فيما يخص نقطة: «كيف يعمل عالم على اختراع بمثل هذه الأهمية والسرية، ثم يصارح به صحفية تعرَّف عليها – توًا - منذ ساعتين، الأدهى. أنه صُدم عندما علم بإصرارها على نشر كل ما سمعته؟ مع أن تصرفها منطقي تمامًا، هي لم تخدعه وتخبره – مثلًا - بأنها تعمل قس اعترافات في كنيسة.

أكرر: بمجرد انقضاء أول 10 دقائق من الفيلم، عرفنا الخطوط العريضة لموضوع (جهاز الانتقال الآني)، ثم تسير الحبكة في الخط الزمني المستقيم الذي تحدثنا عنه.

هذا في حد ذاته يمثل بداية مشجعة جدًّا للجمهور المحب للخيال العلمي (أصنف نفسي منهم دومًا بالمناسبة)، أمَّا من هم ليسوا كذلك، فيسفقدون الكثير من اهتمامهم بالموضوع.

بلا شك، من حق صانع العمل تحديد شريحة مستهدفة بعينها، واختيار وسيلة معالجة تناسب مقاس هذا الجمهور دون غيره، دون أن يُنقص ذلك من الحكم على المنتج ككل، لذلك نحن لا نتحدث هنا عن (صواب/ خطأ)، بل الفارق بين معالجة سينمائية أعجبتني جدًّا، وبين نص أبهرني لدرجة أنني تمنيت لو كتبت مثله. حيث بدأت قصة «لانجيلان» باتصال من امرأة، تخبر شقيق زوجها بأمر الجريمة التي ارتكبتها في حق شريك حياتها، وتطالب بإبلاغ الشرطة. هذه البداية بقدر ما هي مشوقة، فإنها تفتح الباب لكل الاحتمالات: «هل الزوجة قاتلة بالفعل؟ مجنونة؟ خائنة لها عشيق، ساعدها في هذه الجريمة؟».

خلال النصف الأول من القصة على الأقل، كل منا سيحار في تحديد طبيعة تصنيفها (هل هي جريمة؟ رعب؟ فانتازيا؟)، فحتى من لا يحب الخيال العلمي سينجذب للتكملة، لحين بداية اتضاح ملامح حل اللغز، سيدرك حينها أن الوقت قد فات على إمكانية التوقف، وأن الحبكة أمسكت بتلابيبه بالفعل.

باختصار، إن «ما سكت عنه المؤلف، لم يقل أهمية عما قاله».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استوقفتني ملاحظة: أنني – شخصيًّا - ابتلعت سلاسل سينمائية مثل «المنشار» و«مكعب» بأسهل مما حدث مع «الذبابة»، مع أن الأفلام المذكورة تحتوي على لقطات أكثر شناعة!

فكرت كثيرًا في هذه النقطة، فكانت الإجابة الوحيدة التي توصلت إليها، أن الفارق يعود إلى اعتماد فيلمي «مكعب» و«المنشار» على فخوخ وحشية متنوعة، تحول ضحاياها سيئي الحظ إلى دماء وأشلاء، لكنهم – رغم الميتة الشنيعة - عاشوا بشرًا.. ورحلوا بشرًا.. تلك الرفاهية لا تُتاح في أفلام مثل «الذبابة»، عندما يداهمك التحول/التحلل البشع من الداخل.

لو أن المخترع «براندن» استقبل هذه التغيرات بالصراخ والانهيار، لكان أهون. إلا أن السيناريو اختار مضاعفة أسى المشاهد، عندما رأى البطل متمسكًا بالروح

الساخرة الحيوية، التي استمرت معه لما قبل اكتمال تحوله بقليل، وكأنما كانت تمثل آخر شعرة سقطت من إنسانيته.

نال الممثل «جيف جولدبلوم» إشادات واسعة عن تجسيده للدور، وهذا ليس بغريب على «جولدبلوم»، الذي أحببته منذ تعرفت عليه - لأول مرة - عبر مشاركته لـ«ول سميث» في بطولة الفيلم الشهير «يوم الاستقلال».

بما أننا تحدثنا عن تجسيد «جولدبلوم»، لا بدَّ أن نذكر اسمين مهمين، كانت للمساتهما وراء الكاميرا دور مهم: «كريس والاس»، و«ستيفان دوبوي». صاحبا الماكياج المقنع/ المرعب، الذي توجا عنه بجائزة أوسكار.

اختار المترجم «نادر أسامة» فيلم «الذبابة: 1986م» ضمن قائمته الشخصية لأفضل خمسين فيلم خيال علمي، معللًا ذلك بتعليق مختصر: «لماذا لا توجد أفلام أخرى عن الانتقال الآني؟ لأن «كرونينبرج» أرَعَبَ الناس منه تمامًا، وأغلق الباب خلفه بضبة ومفتاح».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لديَّ حدود «ربما تكون واسعة» في جرعة الرعب المعوي الذي يمكنني ابتلاعه، عندما قرأت الرواية القصيرة «الذبابة»، خمنت أن الفيلم المستوحى عنها قد يتجاوز تلك الحدود بعض الشيء. فقررت عدم رؤيته في أي وقت مستقبلًا، ظننت أنني لن أضطر إلى ذلك على أية حال، إذ كنت قد كتبت بالفعل مقالًا ونصف «استعادة كلية + أوديسا الفضاء»، فليس من الصحي أن أشغل مساحة أكثر من ذلك، كي نستفيد أكثر من تنوع أكثر للأصوات.

بدأت المشاورات مع المتطوعين للمشاركة في قسم مقالات السينما داخل الكتاب، فإذا بالأمور التي تخص «الذبابة»، تسير فيما يشبه «لعنة الفراعنة».

أول من اقترحت عليه الكتابة عن الفيلم، قال نصًا: «كي أكتب عنه، لا بدَّ أن أعيد مشاهدته لأتذكر التفاصيل، ولو دفعتم لي كي أراه مرة أخرى، لن أوافق. أفضل بدلًا منه الكتابة عن فيلم (كذا)».

عثرت – بعد مشقة - على زميل آخر قبل المهمة، فتحمست لانزياح الغمة أخيرًا، خصوصًا أن الفتى يدرس في معهد السينما حاليًّا (أي إنه متخصص من الناحيتين)، فجأة. بلغني خبر اضطراره للسفر، لأن اثنين من أعمامه أصيبا – معًا - في حادث انقلاب سيارة.

الثالث، قطع شوطًا طويلًا في المشوار، فقرأ النص الأصلي مرتين، وشاهد الفيلم فعلًا بلا مشكلات، غير أن ظروفًا قهرية طرأت، منعته من اللحاق بالجدول الزمني للمشروع.

انتهى المترجمون الخمسة من عملهم واحدًا تلو الآخر، كما قضينا بعدها – تدريجيًّا - على الفجوات الناقصة فيما يخص قسم المقالات، فلم يتبقَ سوى هذا الفصل.

باختصار، شعرت أن الحلقة تضيق حولي تدريجيًّا، وكأن كل الظروف تتضافرت لتدفعني إلى مشاهدة الفيلم رغم أنفي، وقررت - في النهاية - الانصياع إلى عبارة «جون واين» التي اشتهر بها في أفلام «رعاة البقر»: «على الرجل أن يقوم بما يجب على الرجل القيام به».

يُعد الفيلم من أميز الكلاسيكيات التي شاهدتها في حياتي، لكن كما قلت من خلال العنوان: إنه من التحف السينمائية التي أبصم بالعشرة على تفردها، لكن ليست من نوعية الأفلام التي قد أحب مشاهدتها مرتين، الأمر نفسه انطبق على النص الأصلي؛ أعجبني لأبعد الحدود، وتمنيت لو أنني كتبت مثله يومًا، إلا أنني شعرت بالورطة عندما وجدت أنني مضطر إلى مطالعته مرة أخرى في أثناء المراجعة النهائية لتحرير الكتاب، فكان الحل الوحيد الذي توصلت إليه: أن أراجع النص من الأسفل إلى الأعلى، كي لا أسمح لنفسي بالاندماج مع الأحداث مرة أخرى.

فيما بعد، انتابني الفضول كي أعرف أكثر عن المؤلف الفرنسي «جورج لانجيلان»، فتفاجئت بأن حياته ذاتها تستحق التحول إلى فيلم.

عندما تقرأ قصة رعب متقنة، بقلم مؤلف أجنبي تجهله، تتخيل أن صاحبها عاش حياة رائقة البال، بين مكتب وأوراق وفناجين قهوة، لم يخطر في بالي – إطلاقًا - أنه جاسوس سابق، حاصل على وسام (Croix de guerre) العسكري.

«جورج لانجيلان».. صحفي فرنسي، التحق في أثناء الحرب العالمية الثانية بقسم (FE SOE). ليس قسمًا ضمن جريدة، الـ«SOE» هي العمليات الخاصة التابعة لقوات الحلفاء، وقام «لانجيلان» بالتجسس لحسابها، حتى سقط في قبضة الألمان، ليصدر ضده حكمًا بالإعدام. كلا، لم يمت، وإلا لما كنا نتحدث الآن عن قصة كتبها بعد انتهاء الحرب بنحو 12 عامًا. نجح «لانجيلان» – أو «لانجدون» حسب اسمه الشفري - في الهرب، إلا أنه عاد مرة أخرى – لاحقًا - ليشارك في «إنزال نورماندي».

بعد الانتهاء من ترجمة «الذبابة»، تحدثت مع محمد عبد العزيز، مقترحًا التنقيب – مستقبلًا - عبر الشبكة العنكبوتية، بحثًا عن إصدارات أخرى لـ«لانجيلان». انتابني الفضول (ولا يزال) لمعرفة الإجابة عن سؤال واحد: «هل قصة «الذبابة» كانت فلتة يتيمة في مشوار المؤلف، أم نجح في كتابة أعمال تقاربها في المستوى؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

A CHRISTOPHER NOLAN FILM
MEMENTO
STARRING:
GUY PEARCE,
CARRIE-ANNE MOSS
AND JOE PANTOLIANO
搜狐号@爽有话要说

2- تذكار الموت أو «ميمينتو مورى»([5])
تأليف: جوناثان نولان

ترجمة: محمد عبد العزيز

اعتادت زوجتك أن تقول دومًا إنك ستتأخر حتى على جنازتك.. أتتذكر؟ كانت تسخر دومًا من كونك متكاسلًا، دائمًا متأخرًا، ودائمًا تنسى، حتى من قبل ذلك الحادث!

لكن الآن، ما تقلق بشأنه فعلًا هو إذا ما كنت قد تأخرت على حضور جنازتها هي..

كنت هناك، أنت متأكد من هذا.. هذه هي فائدة تلك الصورة المعلقة على الباب.. فليس من المعتاد التقاط الصور في الجنازات، لكن أحدهم - أطباءك غالبًا - كانوا يعرفون أنك لن تتذكر.. لهذا قاموا بالتقاط الصورة وتكبيرها ووضعها بجانب الباب لتكون أمامك دائمًا، ولا يكون بوسعك غير رؤيتها في كل مرة تنهض فيها من سريرك لتبحث عن زوجتك..

الرجل الواقف بالصورة، الذي يمسك بالزهور؟ هذا أنت؟!

ماذا كنت تفعل؟ كنت تقرأ شاهد القبر، محاولًا تخمين صاحب الجنازة التي أنت فيها الآن، بالضبط كما تحاول الآن قراءته، محاولًا تخمين لماذا قام أحدهم بتعليق تلك الصورة بجوار بابك.. لكن لماذا تزعج نفسك بقراءة شيء لن تتذكره فيما بعد؟

لقد ذهبت، للأبد.. ولا بدَّ أنك تتألم منذ سمعت الخبر.. صدقني، أعرف كيف تشعر، غالبًا تشعر بأنك حطام.. لكن أعطي نفسك خمس دقائق، ربما عشر.. أعدك أنك خلال نصف ساعة على الأكثر ستكون قد نسيت كل شيء.

ستنسى، أؤكد لك هذا.. خلال بضع دقائق ستتجه ثانية للباب، باحثًا عنها كأنك لم تكن تفعل منذ لحظات، قبل أن تنهار عندما تجد الصورة.. كم من مرة يجب أن تعرف الخبر قبل أن يستطيع أي جزء في جسدك - غير مخك المعطوب هذا - أن يتذكر؟

حزن لا ينتهي، يصاحبه غضب بلا نهاية.. لكن كلاهما بلا فائدة لو لم يتم توجيههما.. ربما لا تفهم ما حدث.. لا يمكنني القول إنني أفهم بالكامل كذلك.. فقدان ذاكرة عكسي.. هذا هو المكتوب على الورقة.. CRS disease congenital rubella syndromes متلازمة الحميراء الخلقية.

تخمينك مثل تخميني بالضبط.

ربما كنت لا تفهم ما حدث لك، لكنك تتذكر ما حدث لها! صح؟ الأطباء لا يريدون التحدث عنها، ولهذا لا يجيبون عن أسئلتي، فهم لا يظنون أن حالتك تسمح

بسماع تلك الأشياء، لكنك تتذكر ما فيه الكفاية، صح؟ تتذكر وجهه على الأقل!

لهذا أنا أكتب لك.

ربما كان ما أفعله بلا طائل، فأنا لا أعلم كم من مرة يجب أن تقرأ هذا قبل أن تسمع كلامي.. لا أعلم حتى لكم من الوقت كنت محبوسًا بتلك الحجرة.. ولا أنت تتذكر، لكن ميزة النسيان في حالتك هي أنك ستنسى حتى أن تكتب لنفسك أنك يجب عليك التوقف لعدم فائدة ما تفعله.

عاجلًا أم آجلًا ستريد أن تفعل شيئًا بخصوص هذا.. وعندما تفعل، سيتوجب عليك أن تثق بي، لأنني الوحيد الذي يمكنه مساعدتك.

فتح «إيرل» إحدى عينيه ثم الأخرى، لتقابلا سقفًا أبيض، لا يعكره شيء إلا ملحوظة مكتوبة باليد ومعلقة بالضبط فوق رأسه، كانت كبيرة بما فيه الكفاية ليقرأها من مكانه على الفراش.. هناك جرس منبه يرن في مكان ما.. قرأ المكتوب، رمش بعينيه، قبل أن يقرأ الكلمات ثانية، ثم ألقى بنظرة على الحجرة من حوله..

كانت غرفة بيضاء بطريقة مبالغ فيها، بدءًا من الجدران والستائر وحتى الأثاث الذي شابه أثاث المستشفيات، وحتى أغطية الفراش.. كان مصدر الرنين منبهًا موضوعًا على المكتب الأبيض الموجود أسفل النافذة ذات الستائر البيضاء.. في تلك اللحظة غالبًا لاحظ «إيرل» أنه يرقد على فراش مستشفى، أبيض هو الآخر.. ووجد أنه يرتدي ملابس للنوم وخفين.

استلقى ثانية وقرأ الملحوظة الملصقة على السقف مرة أخرى.. كانت حروفًا سوداء ضخمة، تفيد بأن: هذه هي غرفتك.. غرفة مستشفى.. هذا هو المكان الذي تقيم فيه الآن.

نهض «إيرل» ملقيًا نظرة من حوله.. كانت الغرفة أكبر من غرف المستشفيات المعتادة، وكان هناك مشمع يخرج من الفراش في ثلاثة اتجاهات.. بابين، ونافذة.. لم يكن المنظر الذي تطل عليه النافذة مفيدًا للغاية، فقد كانت تطل على مجموعة من الأشجار في منتصف منطقة مشذبة بعناية من الحشائش، لتنتهي عند حارة مرصوفة بأسفلت فضي اللون.

كانت الأشجار، باستثناء تلك دائمة الخضرة، قد تساقطت أوراقها، مما يعني أنهم في بداية الربيع أو نهاية الخريف، واحد منهما..

كان كل شبر من الغرفة مغطًى بالملحوظات، وبالأوراق المخططة، وبقوائم أنيقة مطبوعة، وكتب عن التحليل النفسي، وصور داخل إطار، وعلى قائمة التل كانت هناك كلمات متقاطعة نصف محلولة.. كان المنبه يعتلي قمة تل من الجرائد المطوية.. ضغط «إيرل» على زر إغلاق المنبه، وأخذ سيجارة من العبوة المثبتة بشريط لاصق في كم ردائه.. ربت على جيوب بيجامته الخالية باحثًا عن ولاعة.

ألقى بالأوراق على المكتب، ونظر سريعًا متفقدًا الأدراج.. أخيرًا وجد عبوة من الكبريت ملصقة على الجدار المجاور للنافذة.. وكانت هناك ملحوظة أخرى ملصوقة فوق العبوة، وكان مكتوب عليها بحروف صفراء ضخمة أين السجائر؟ ابحث عن السجائر التي أشعلتها قبلًا ونسيتها يا غبي!

ضحك «إيرل»من المكتوب، قبل أن يشعل سيجارته، ويأخذ منها نفسًا طويلًا.. وعلى النافذة الموجودة أمامه كانت هناك ملحوظة أخرى ذات عنوان: «جدولك اليومي».

كان عبارة عن جدول يوضِّح الساعات، كل ساعة في خانة، بدءًا من العاشرة صباحًا وحتى الثامنة مساءً، والتي كُتب عليها: «اذهب للنوم». تفقَّد «إيرل» المنبه ليجد أن الساعة صارت الثامنة والربع.. وبناءً على الضوء الموجود بالخارج، فلا بدَّ أن الوقت صباحًا.. تفقَّد ساعته، والتي أشارت للعاشرة والنصف.. وضع أذنه على الساعة وأرهف سمعه، قبل أن ينفخ فيها مرة أو مرتين، قبل أن يقوم بضبطها على توقيت ساعة المنبه.

حسب الجدول، فالفترة من الثامنة وحتى الثامنة والنصف مخصصة لـ: «اغسل أسنانك». ضحك «إيرل» ثانية قبل أن يتجه نحو الحمام.

كانت نافذة الحمام مفتوحة، وبينما كان يفرك ذراعيه ليبقى دافئًا، لاحظ منفضة السجائر على عتبة النافذة.. كانت هناك سيجارة في المنفضة، تحترق بثبات مخلفة وراءها عمودًا طويلًا من الدخَان.. تجهَّم، قبل أن يطفئ سيجارته القديمة، ويضع مكانها الجديدة.

كانت هناك لطخة من معجون أسنان أبيض فوق فرشاة الأسنان.. كان مفتاح صنبور المياه من النوعية التي تضغط عليها ليطلق دفقات من المياه.. دفع «إيرل» الفرشاة داخل فمه، قبل أن يحركها ذهابًا وإيابًا، بينما كان يفتح دولاب الأدوية.. كانت الأرفف ممتلئة بعبوات من التي تُستعمل كجرعة واحدة من الفيتامينات، والأسبرين، ومضادات التبول.. حتى مضمضة الفم كانت مقسمة لعبوات للاستخدام مرة واحدة، في زجاجات بلاستيكية مغلقة، وبداخل كل منها مُلأ كوب صغير من السائل الأزرق.. كان معجون الأسنان هو الشيء الوحيد الموجود بعبوته العادية.. بصق «إيرل» المعجون من فمه وشرب قليلًا من سائل مضمضة الفم.. وبينما كان يضع المعجون بجانب الفرشاة، لاحظ قطعة ورق صغيرة مطوية ومحشورة بين الرف الزجاجي وظهر دولاب الأدوية المعدني.

بصق السائل الأزرق الرغوي في الحوض، وتناول بعض المياه ليغسل فمه منه.. أغلق دولاب الأدوية، قبل أن يبتسم لانعكاسه في المرآة.

من يحتاج إلى نصف ساعة ليغسل أسنانه؟

كانت الورقة مطوية لحجم صغير للغاية، كأنها رسالة حب سرية من صبي بالصف السادس يخاف أن يراها أحدهم.

فضها «إيرل» وفردها على المرآة، قبل أن يقرأ فيها: «لو كان لا يزال بوسعك قراءة هذا، فأنت جبان قذر».

حدَّق «إيرل» في الورقة دون تعبير، ثم قرأها ثانية.. قلبها على وجهها الآخر، وقرأ المكتوب: «ملحوظة: بعدما تقرأ هذه الملحوظة، خبئ الورقة ثانية».

قرأ «إيرل» وجهي الورقة ثانية، ثم طواها لحجمها السابق وحشرها تحت معجون الأسنان.

ربما كانت هذه هي اللحظة التي انتبه فيها للندبة.. كانت تبدأ من أسفل أذنه، وكانت متعرجة، وسميكة، وتختفي بشكل مفاجئ عند منابت الشعر.. أدار «إيرل» رأسه وحدق بركن عينه متابعًا شكل الندبة.. اقتفى أثرها بطرف إصبعه، ثم نظر لأسفل نحو السيجارة المحترقة في المنفضة.. تملكه خاطر معين فهرع خارجًا من الحمام.

وقف عند باب غرفته، واضعًا إحدى يديه على المقبض.. كانت هناك صورتان ملصقتان على الجدار المجاور للباب.. واحدة منهما كانت أشعة رنين مغناطيسي، وجذبت انتباه «إيرل» على الفور.. لها إطار أسود لامع يضم أربعة أجزاء، كل واحد منهم به نتيجة رنين مغناطيسي لمخ الشخص نفسه، وبقلم ماركر كان مكتوبًا عليها بالأسفل: «مخك». حدَّق «إيرل» فيها.. كانت هناك دوائر متحدة المركز، ذات ألوان مختلفة.. كان بوسعه تمييز المحجرين الكبيرين لعينيه، وخلفهما كان الفصان التوءمان لمخه.. تجاعيد ناعمة، دوائر، شبه دوائر، لكن في منتصف رأسه تمامًا كانت هناك علامة بالماركر على جزء يخرج من مؤخرة عنقه كأنه يرقة تخرج من ثمرة خوخ.. كان هناك شيء مختلف.. مشوه، ومكسور، ولكن قابل للتمييز.. لطخة داكنة على شكل وردة، في منتصف مخه تمامًا.

انحنى لينظر للصورة الأخرى.. كانت صورة فوتوغرافية لرجل يحمل بعض الزهور، ويقف على قبر حديث.. كان الرجل منحنيًا ليقرأ شاهد القبر.. للحظة شعر أنه يقف أمام مجموعة من المرايات، أو بداية سلسلة لا تنتهي من الصور، التي ينحني فيها رجل متأملًا صورة الرجل الآخر، الذي انحنى ليقرأ شاهد القبر.. هكذا وإلى ما لا نهاية!

نظر «إيرل» نحو الصورة لفترة طويلة، وربما بدأ في البكاء.. ربما وقف صامتًا يتأمل الصورة.. في النهاية اتجه صوب فراشه، رقد، وأغلق عينيه، وحاول النوم.

كانت السيجارة تحترق بثبات في الحمام، بينما بدأ عد تنازلي من عشرة في ساعة المنبه، ثم بدأ يرن ثانية..

فتح «إيرل» عينيه ليرمق السقف الأبيض المغطى بالبلاط، الذي لا يعكره إلا ملحوظة مكتوبة باليد فوق رأسه مباشرة، وكانت واضحة بما فيه الكفاية ليقرأها من مكانه على الفراش.

«لا يمكنك أن تحظى بحياة عادية ثانية.. يجب أن تعرف هذا.. كيف يمكنك أن تحظى بحبيبة إذا لم يكن بوسعك تذكر اسمها؟ لا يمكنك أن تحظى بأطفال، ما لم

تريدهم أن يكبروا مع أب لا يمكنه التعرف عليهم.. لا يمكنك طبعًا الاحتفاظ بعمل، فليست هناك الكثير من الوظائف التي تقدر قيمة النسيان.. فتيات الليل ربما تحتجن إلى تلك الصفة، والسياسيون طبعًا».

«لا.. لقد انتهت حياتك.. أنت رجل ميت.. الشيء الوحيد الذي يأمل الأطباء في حدوثه هو تعليمك كيف تصبح أقل عبئًا على الممرضين، وغالبًا لن يتركوك تعود لمنزلك أبدًا، أيًّا كان مكان هذا المنزل الذي لا تتذكره بطبيعة الحال».

«لهذا فالسؤال السليم ليس «أن تكون أو لا تكون»، لأنك لست كائنًا من الأصل.. السؤال الصحيح هو عمَّا إذا كنت تنتوي فعل شيء بخصوص هذا.. عمَّا إذا كان الانتقام يهمك لتلك الدرجة.. فالانتقام يهم معظم الناس الذين يقضون الأسابيع في إعداد الخطط والمؤمرات، وتحديد الطريقة المناسبة للانتقام، لكن مرور الوقت كافٍ لتآكل هذا الاندفاع الأولي.. الوقت كالسيف، أليس هذا ما يقولونه؟ وغالبًا ما ينجح الوقت في إقناع معظمنا «أن العفو عند المقدرة» من صفات الأقوياء.. بالنهاية، الجبن والتسامح يبدوان الشيء نفسه من مسافة معينة.. الوقت يسرق قوتك!».

لو لم يكن الوقت والخوف كافيين لتثني الناس عن انتقامهم، فهناك دائمًا السلطات، التي تهز رأسها بخفوت قائلة إنها تتفهم موقفك، لكن ربما كان من الأفضل أن تكون الشخص الأفضل وتسامح.. أن تسمو فوق ما حدث ولا تنحدر لمستواهم.. بالإضافة لأنك لو حاولت القيام بأي شيء غبي؛ فالسلطات تعدك بأنها ستحبسك في غرفة صغيرة حتى تجن».

«لكنهم يضعونك بالفعل بغرفة صغيرة، صح؟».

الاختلاف الوحيد هو أنهم لا يغلقون عليك قضبانًا، ولا حتى يحرسونها بحرص لأنهم يعرفون أنك مجرد عاجز! جثة.. مجرد جماد لا يستطيع حتى أن يتذكر تناول الطعام أو دخول الحمام ما لم يقم أحدهم بتذكيره.

وبالنسبة إلى مرور الوقت، حسنًا، هذا لا ينطبق بالكامل على حالتك، صح؟ العشر دقائق اللعينة نفسها، تتكرر إلى ما لا نهاية.. كيف يمكنك إذًا أن تسامح بينما ليس بوسعك أن تتذكر أن تنسى؟

غالبًا أنت كنت من النوع الذي يسامح، صح؟ في الماضي.. لكنك لم تعد الرجل نفسه الذي كنته سابقًا.. لست نصفه حتى.. صرت مجرد كسر منه، صرت رجل العشر دقائق.

طبعًا هناك نوع معين من القوة في الضعف.. فهي دافع أولي.. غالبًا كنت ستفضل أن تجلس في غرفتك الصغيرة وتبكي.. أن تعيش بين مجموعتك المحدودة من الذكريات، مهتمًا بتلميع وتنظيف كل واحدة منها بحرص.. مجرد نصف حياة معروضة خلف لوح زجاجي، ومثبتة بدبابيس على لوحة كبيرة، كمجموعة من الحشرات الغريبة.. كنت تفضل لو تعيش خلف طبقة من زجاج، صح؟ موضوعًا في مواد حافظة.

ترغب في هذا لكنه ليس بوسعك، صح؟ ليس بوسعك بسبب آخر إضافة لمجموعة مقتنياتك.. آخر شيء تتذكره.. وجهه.. وجهه وزوجتك وهي تصرخ طالبة منك أن تنجدها».

«ربما يكون هذا هو الوقت الذي تتوقف فيه عن كل هذا، عندما ينتهي الأمر!

مجموعة مقتنياتك الصغيرة.. يمكنهم أن يحبسوك ثانية في حجرة صغيرة أخرى، ووقتها ستحيا حياتك في الماضي بالكامل.. فقط لو كانت هناك ورقة مكتوب فيها أنك حظيت بانتقامك منه!

تعرف أنني محق.. تعرف أنه لا يزال هناك الكثير من العمل وراءنا.. ربما بدا الأمر مستحيلًا، لكنني متأكد أنه لو قام كل واحد منا بالجزء الخاص به، فسنتمكن من العثور على طريقة للتنفيذ.. لكنك لم يعد أمامك الكثير من الوقت.. أمامك فقط عشر دقائق، في الواقع، قبل أن يبدأ كل شيء من البداية ثانية.. لهذا يجب أن تفعل شيئًا مستغلًا الوقت الذي لديك!».

فتح «إيرل» عينيه، ورمش بعينيه في الظلام.. كان المنبه يرن، معلنًا أن الساعة صارت الثالثة وعشرين دقيقة، بينما كان ضوء القمر الذي يتسلل عبر النافذة لا يعني غير أن الوقت لا يزال بالصباح الباكر.. تلمس «إيرل» طريقه باحثًا عن المصباح، حتى كاد أن ينقلب على رأسه في أثناء العملية.. ملأ الضوء الساطع الغرفة، راميًا بظلال من اللون الأصفر على الأثاث المعدني، وكذلك على الجدران، وغطاء الفراش أيضًا.. استلقى ثانية ونظر نحو السقف الأصفر المغطى بالبلاط من فوقه، والذي تخللته ورقة ملصقة مكتوبة باليد. قرأ المكتوب عليها مرتين أو ثلاث، ثم رمق الغرفة من حوله.

كانت غرفة عارية من الأثاث.. ربما في مستشفى.. كان هناك مكتب بالقرب من النافذة.. كان المكتب خاليًا إلا من المنبه المزعج.. غالبًا كانت هذه هي اللحظة التي لاحظ فيها «إيرل» أنه يرتدي ملابسه كاملة، حتى حذاءه، وهو راقد أسفل الأغطية.. أخرج نفسه من الفراش واتجه نحو المكتب.. لا يوجد أي شيء بالغرفة يوحي بأن أي شخص يعيش، أو عاش هنا، باستثناء شريط اللاصق الغريب المتناثر هنا وهناك.. لا ثور، ولا كتب، لا شيء! كان بوسعه رؤية القمر بدرًا مكتملًا من خلال النافذة، وهو يلقي بأشعته الرقيقة على الحشائش اللامعة.

ضغط «إيرل» على زر إغلاق المنبه، وحدق للحظة في المفتاحين الملصقين لظهر يده.. في جيب سترته الأيسر وجد رزمة من النقود من فئة المائة دولار، وخطابًا بداخل مظروف مغلق.. تفقد بقية الغرفة الرئيسية والحمام.. بعض الأشرطة اللاصقة، بعض أعقاب السجائر، ولا شيء آخر.

أخذ «إيرل» يداعب نتوء الندبة الموجودة على رقبته دون أن يشعر، قبل أن يعود لفراشه.. استلقى ثانية وحدق لأعلى نحو السقف والملحوظة الملصقة عليه.. قرأ: «انهض!».. «انهض حالًا!».. «هؤلاء الناس يحاولون قتلك!».

أغلق «إيرل» عينيه.

«حاولوا تعليمك كيف تقوم بعمل قوائم في الصف الابتدائي، أتتذكر؟.

وقتها كنت ترسم جدولك اليومي على ظهر يدك، ولو محيت الواجبات المفروضة عليك في أثناء الاستحمام، حسنًا، لم تكن تفعلها.. لا توجد توجيهات، هذا ما قالوه.. لا التزام، لهذا حاولوا أن يجعلوك تكتبها في مكان أكثر أمانًا».

«طبعًا كان مدرسو المدرسة الثانوية سيضحكون ملء أفواههم لو كان بوسعهم رؤيتك حالك الآن.. فقد أصبحت النتاج المثالي لدروسهم التنظيمية.. لم يعد بوسعك حتى أن تدخل الحمام لتتبول دون استشارة قائمة مواعيدك».

«كانوا محقين.. القوائم هي الطريقة الوحيدة للخروج من تلك الفوضى».

«ها هي الحقيقة: الناس، حتى الناس العادية، ليست ذات شخصية واحدة ثابتة.. الأمر ليس بتلك البساطة.. فنحن تحت رحمة الجهاز الحوفي (مجموعة من الأعصاب بداخل المخ).. سحب من الكهرباء تمر عبر المخ.. كل رجل منا ينقسم لأجزاء كل جزء منها لساعة من ساعات اليوم الأربع والعشرين.. ثم ينقسم ثانية لأجزاء أصغر فأصغر».

كأنه عرض بانتومايم يومي صامت، كل شخص يخضع لسلطة التايل: زحام من البلهاء بالكواليس الخلفية لا يكف عن الصراخ مطالبين بدورهم في الحصول على الانتباه.. كل أسبوع، كل يوم.. يقوم الجزء الغاضب بمناولة زمام التصرف للجزء العابس دومًا، الذي لا يلبث أن يناوله للجزء المهووس بالجنس، ثم للجزء المنطوي، قبل أن يستولي عليه الاجتماعي اللبق.. كل رجل منا يتكون من حشد بداخله.. مجموعة من الحمقى المتجمعين معًا.

هذه هي مأساة الحياة.. لأن كل يوم يصبح كل شخص عبقريًّا ولو لدقائق معدودة، لحظات من الصفاء، والبصيرة، أو أيًّا كانت تسميتك لها.. تتفرق السحب، وتنتظم الكواكب في مداراتها، ويصبح كل شيء واضحًا.. يجب أن أتوقف عن التدخين، ربما، أو هذه هي الطريقة التي ستمكنني من الحصول على مليون دولار سريعًا، أو أن كذا وكذا هو مفتاح السعادة الأبدية.. هذه هي الحقيقة البائسة.. للحظات معدودة، تتكشف لنا أسرار الكون.. الحياة خدعة سحرية رخيصة.

لكنَّ العبقري.. والعالِم، مضطران بالنهاية أن يناولا المقود للرجل التالي بالسلسلة، والذي غالبًا ما يكون رجلًا لا يريد إلا التهام بعض رقائق الشيبسي، وينتهي الأمر بكل البصيرة والذكاء وسرعة البديهة وقد صاروا في عهدة الأحمق أو الشهواني أو المدمن!

طبعًا الطريقة الوحيدة للخروج من هذه الفوضى هي أخذ خطوات تمكنك من التحكم في هؤلاء الحمقى الذين تصبحهم.. أن تأخذ مقود السلسلة، يدًا بيد، وتقودهم.. أفضل طريقة لفعل هذا هي عن طريق صنع قائمة.

الأمر أشبه بكتابة خطاب لنفسك.. خطة مدروسة كتبها الشخص الذي يمكنه رؤية الضوء، وخطواتها بسيطة بما فيه الكفاية ليفهمها بقية البلهاء.. نفِّذ

الخطوات بدءًا من رقم1 وحتى 100.. كررها عند الحاجة..

ربما كانت مشكلتك أكثر حدة من هذا، لكنها تقريبًا الشيء نفسه.

كأنها ذلك الموضوع الخاص بالكومبيوتر.. الغرفة الصينية، أتتذكرها؟ هناك شخص يجلس في غرفة صغيرة، يقوم بتوزيع كروت تحمل حروفًا بلغة لا يفهمها، واضعًا «كارت» في كل مرة حسب تعليمات شخص آخر.. من المفترض أن تلك الكروت تحكي نكتة باللغة الصينية.. الرجل لا يتحدث الصينية طبعًا، هو فقط يتبع التعليمات».

هناك اختلافات واضحة في حالتك طبعًا، فأنت تمكنت من الهروب من الغرفة التي وضعوك فيها، لهذا فيجب أن تكون المخاطرة محسوبة جيدًا.

والرجل الذي يعطي التعليمات، هو أنت كذلك، فقط نسخة أقدم منك.. صحيح أن النكتة التي تحكيها بها نهاية مفاجئة ومضحكة، لكنني لا أظن أن أي شخص سيجد تلك النهاية مضحكة.

هذه هي الفكرة.. كل ما يجب عليك فعله هو تتبع تعليماتك.. كأنك تصعد سلمًا أو تنزل سلمًا.. خطوة واحدة في كل مرة.. فقط تتبع القائمة.. الأمر بسيط.

والسر طبعًا لنجاح أي قائمة هو أن تضعها في مكان يجبرك على رؤيتها.

كان بوسعه سماع صوت الأزيز يتسلل من خلال جفنيه مصممًا على إزعاجه.. حاول الوصول للمنبه، لكن لم يكن بوسعه تحريك ذراعه.

فتح «إيرل» عينيه ليرى رجلًا ضخمًا منحنيًا فوقه.. نظر الرجل نحوه منزعجًا، قبل أن يستكمل عمله.. نظر «إيرل» من حوله.. كان المكان مظلمًا جدًّا ليكون عيادة طبيب.

ثم غمر الألم مخه، ماحيًا كل الأسئلة الأخرى من عقله.. تلوَّى ثانية، محاولًا أن ينتزع ذراعه التي تؤلمه كأنها تحترق.. لكن ذراعه لا تتحرك، وعبس الرجل المنحني. حرَّك «إيرل» نفسه في الكرسي ليتمكن من رؤية ما فوق رأس الرجل.

كان مصدر كل من الضجيج والألم هو تلك البندقية التي يحملها الرجل.. كانت بندقية بها إبرة في المكان الذي يُفترض أن تكون به الفوهة!

كانت هذه الإبرة تحفر في الجزء السفلي من ساعد «إيرل»، تاركة أثرًا من الحروف المنتفخة خلفها.

حاول «إيرل» أن يحرك نفسه ثانية ليحظى بمشاهدة أفضل، ويتمكن من قراءة الحروف على ذراعه، لكنه لم يتمكن.. استلقى ثانية محدقًا في السقف.

في النهاية، أغلق رسَّام التاتو مصدر الضجيج، قبل أن يمسح ساعد «إيرل» بقطعة من الشاش، ويذهب للخلف ليحضر كتيبًا يشرح كيفية التعامل مع أي عدوى محتملة.. ربما سيخبر زوجته لاحقًا عن هذا الرجل وعن الملحوظات التي طلب نقشها هذه.. ربما تقنعه زوجته أن يتصل بالشرطة.

نظر «إيرل» لأسفل نحو ذراعه، وكانت الحروف ترتفع قليلًا عن جلده، وتنز بعض السوائل البسيطة.. كانت الحروف تبدأ من خلف مكان سوار الساعة في المعصم، وحتى داخل كوعه.. رمق «إيرل» الرسالة وقرأها ثانية.. كانت مكتوبة بحروف كبيرة دقيقة، وتقول: «أنا اغتصبت وقتلت زوجتك!».

«عيد ميلادك اليوم، لهذا فقد أحضرت لك هدية بسيطة.. كان بوسعي أن أحضر لك بعض البيرة، لكن من يعلم ماذا كان يمكن أن يحدث جراء هذا؟».

عوضًا عن هذا، أحضرت لك جرسًا!

أظنُّ أنني ربما احتجت إلى رهن ساعتك لشرائه، لكن لماذا ستحتاج إلى ساعة على أية حال؟

لا بدَّ وأنك تسأل نفسك، لماذا جرس بالذات؟ في الحقيقة، أظنُّ أنك ستسأل نفسك هذا السؤال في كل مرة تعثر عليه في جيوبك.. لقد استهلكت تلك الكلمات السابقة الكثير من المكان المتاح.. أكثر بكثير مما بوسعك قراءته في كل مرة ستريد فيها أن تحظى بإجابة سؤالك البسيط».

إنها نكتة فعلًا.. نكتة عملية.. لكن فكر فيها بتلك الطريقة:

في الواقع، أنا لا أضحك عليك بقدر ما أنا أضحك معك.

أحب أن أفكر أنك في كل مرة ستخرجه فيها من جيبك، ستتساءل، لماذا لدي هذا الجرس؟ جزء صغير بداخلك، جزء صغير في مخك المعطوب سيتذكر ويضحك، كما أضحك أنا الآن.

بالإضافة إلى أنك تعرف الإجابة.. كانت شيئًا تعلمته أنت من قبل.. لهذا لو فكرت قليلًا في الموضوع، ستتذكر.

في الماضي، كان الناس مهووسين بالخوف من أن يدفنوا أحياءً، أتتذكر الآن؟ لم تكن العلوم الطبية وقتها متقدمة كما هي الآن، لهذا لم يكن الأمر غير معتاد أن يستيقظ الشخص ليجد نفسه بداخل تابوت! لهذا كان الأغنياء يصنعون توابيتهم بأنابيب تنفس، تصل حتى ما فوق سطح الأرض، حتى إذا ما استيقظ أحدهم على خلاف ما هو متوقع منه، لن يجد نفسه محرومًا من الأكسجين.. لكن الآن، لا بدَّ أنهم اختبروا هذا الاختراع بما فيه الكفاية ليدركوا أن بوسع المرء أن يصرخ مستنجدًا ملء حنجرته من خلال تلك الأنابيب، لكنها أضيق من أن تحمل مثل هذا الضجيج للأعلى، ما سيصل سيكون أخفت من أن يجذب الانتباه على الأقل.

لهذا قاموا بوضع خيط عبر الأنبوب، ينتهي بجرس صغير معلق بشاهد القبر.. هكذا لو عاد ميت للحياة، كل ما يجب عليه فعله هو أن يقوم برن الجرس الصغير حتى يأتي أحدهم ويحفر ليخرجه..

أنا أضحك الآن لمجرد تصورك على متن أتوبيس أو ربما في مطعم للطعام السريع، تمد يدك لجيبك فتجد جرسك الصغير.. ستتساءل بينك وبين نفسك عن

مصدره، ولماذا هو بحوزتك.. ربما حتى ستجرب أن تقوم بتحريكه لتسمع رنينه.

كل سنة وأنت طيب يا صديقي..

لا أعرف من الذي توصل لحل مشكلتنا المشتركة، لهذا لا أعرف ما إذا كان يجب أن أهنئك أم أهنئ نفسي.. يجب أن أعترف أنه تغيير في نمط الحياة، لكن هذا لا يمنع كونه حلًا ممتازًا.

انظر لنفسك بحثًا عن الإجابة..

يبدو هذا كأنه مقولة من كارت معايدة.. لا أعرف متى فكرت في شيء كهذا، لكنك بهرتني.. أعرف أنك لا تتذكر ما أتحدث عنه أصلًا، لكنه عصف ذهني عظيم.. فبعد كل شيء، الجميع يحتاجون إلى مرآة ليتذكروا من هم فعلًا، وأنت لا تختلف عنهم في هذا.

توقف الصوت الميكانيكي الخافت، ثم كرر نفسه، قائلًا:

«الساعة الثامنة صباحًا، هذه مكالمة لطيفة».

فتح «إيرل» عينيه وأعاد السماعة مكانها.. كان التليفون موضوعًا فوق لوح خشبي رخيص بجانب رأسه ويمتد لما خلف الفراش، قبل أن ينحني عند الركن، وينتهي عند البار الصغير.. كان التليفزيون لا يزال يعمل، عارضًا نقاطًا من الألوان اللامعة تتقافز فوق بعضها بعضًا.

استلقى «إيرل» ثانية واندهش لرؤية نفسه، وقد صار أكبر سنًا وأكثر سمارًا، بينما انسحب الشعر من مقدمة رأسه التي صارت لامعة. كانت المرآة الموجودة على السقف مشروخة، بينما أخذت الطبقة الفضية بالأسفل في الظهور.

استمر «إيرل» في تأمل نفسه، مندهشًا مما يراه، كان يرتدي ملابسه كاملة، لكنها ملابس قديمة برزت خيوطها في بعض الأماكن.

تحسس «إيرل» البقعة المألوفة في رسغه الأيسر باحثًا عن ساعته، لكنها لم تكن هناك.. أبعد نظره عن المرآة ونحو ذراعه، التي كانت عارية وقد صار جلدها كله بدرجة السمار نفسها، كأنما لم يكن يملك ساعة من الأصل.. كان الجلد بأكمله له اللون نفسه باستثناء السهم الأسود المرسوم على جهة رسغه الداخلية، والذي يشير نحو مكان كم القميص.. حملق «إيرل» في السهم للحظة.. ربما توقَّف عن محاولة محوه.. شمَّر عن كُميه.

كان السهم يشير نحو العبارة الموشومة على ذراع «إيرل».. قرأ «إيرل» الرسالة مرة، ربما اثنتين، كان هناك سهم آخر عند بداية الجملة، ويشير إلى نقطة أبعد في ذراع «إيرل»، لتختفي تحت أكمامه المرفوعة؛ فبدأ يفك أزرار قميصه.

نظر إلى أسفل نحو صدره، ليجد أنه بوسعه رؤية الأشكال، لكن دون أن يستطيع التركيز في تفاصيلها، لهذا نظر لأعلى نحو المرآة الموجودة فوقه.

كان السهم يشير إلى أعلى ذراع «إيرل»، عابرًا كتفه، وينحدر عند جذعه العلوي، لينتهي عند صورة لوجه رجل تحتل معظم صدره.. كان وجه رجل ضخم في طريقه للصلع، ذي شارب ولحية مدببة.. كان وجهًا محددًا، لكنه كان مثل سكتشات الشرطة التي تمثِّل المتهمين بناءً على شهادة شهود، بدا خياليًّا نوعًا.

كانت بقية جذعه العلوي مغطاة بكلمات، مقولات، بعض المعلومات، وبعض التعليمات، وكانت كلها مكتوبة بالعكس بالنسبة إلى زاوية «إيرل» في النظر، لكن معدولة بالنسبة إلى المرآة..

بالنهاية جلس «إيرل»، أعاد تزرير قميصه، واتجه نحو المكتب. أخرج قلمًا وورقة من النوتة الموجودة بدرج المكتب، قبل أن يجلس ويبدأ في الكتابة.

«لا أعرف أين ستكون عندما تقرأ هذا، لست حتى متأكدًا ما إذا كنت ستتعب نفسك بقراءته، أظنك لن تحتاج إلى هذا».

فكرة أننا لن نلتق أبدًا مؤسفة فعلًا.. لكن، كما تقول الأغنية، «عندما تقرأ هذه الرسالة، سأكون قد رحلت للأبد».

نحن قريبان جدًّا من الوصول.. أشعر بهذا.. لقد جمعنا الكثير من القطع معًا، أظنُّ أنها صارت مسألة وقت قبل أن تعثر عليه.

من يعرف ما فعلناه لنصل إلى هذه النقطة؟ لا بدَّ من أنها قصة مذهلة، لو فقط كان بإمكانك تذكر أي جزء منها.. أظنُّ أنه من حسن حظك أنك لا تتذكر على أية حال.

خطر لي خاطر الآن، ربما يكون مفيدًا لك..

كل شخص ينتظر مجيء النهاية، لكن ماذا لو كانت النهاية قد مرت بنا بالفعل؟ ماذا لو كانت مزحة يوم الدينونة الأخيرة أنه قد حدث بالفعل وانتهى ونحن لا نزال على حالنا، دون أن نصبح أكثر حكمة؟

تحل نهاية العالم بهدوء، ويتم أخذ المختارين للنعيم، بينما بقيتنا، الذين فشلوا في الاختبار، يستمرون غافلين.. ميتين منذ فترة، نتجول هنا وهناك، بعد أن توقف القدر عن الاكتراث لأمرنا، لكن لا نزال متفائلين بخصوص المستقبل..

أظنُّ أنه لو كان هذا حقيقيًّا، فلن يهم ما تفعله.. لا توجد توقعات.. لو لم يكن بإمكانك العثور عليه، فلن يهم، لأن لا شيء يهم.. ولو تمكنت فعلًا من العثور عليه، سيمكنك إذا قتله دون القلق بخصوص عواقب الأمر، لأنه لن تكون هناك عواقب.. هذا هو ما أفكر فيه الآن، في هذه الغرفة الصغيرة غير المترابطة.. هناك صور ذات برواز تمثل مراكب معلقة على الحائط.. لست متأكدًا، لكن أظن أننا في مكان ما في الساحل.. لو كنت تتساءل عن سبب كون ذراعك اليسرى أدكن لونًا من ذراعك اليمنى بعدة درجات، فليست لدي إجابة لك.. أظنُّ أننا كنا نقود لفترة و.. لا.. لا أعرف ماذا حدث لساعتك.

وبخصوص كل تلك المفاتيح، ليس لدي فكرة كذلك.. لا أستطيع تمييز ولا واحد فيهم. هناك مفاتيح سيارة ومفاتيح منزل وتلك المفاتيح الصغيرة المعقدة التي تخص أقفالًا.. ما الذي كنا نخطط له؟

أتساءل عمَّا إذا كان الرجل سيشعر بالغباء لو عثرت عليه.. أن يتتبعه ويتمكن من الوصول له رجل الدقائق العشر.. أن يغتاله جماد مثلك..

سأذهب خلال لحظات.. سأضع القلم، أغلق عينيك، ثم يمكنك قراءة هذا لو أردت..

أردتك فقط أن تعرف أنني فخور بك.. لم يتبقَ لك أحدٌ ليخبرك بهذا، والموجود لن يهتم أحدٌ بأن يفعل».

فتح «إيرل» عينيه على اتساعهما، محدقًا من خلال نافذة السيارة.. كانت عيناه تبتسمان.. ابتسامة تمر عبر النافذة نحو الزحام الذي يعبر الطريق. كان الزحام يتجمع حول جسد في الطريق.. جسد يفرغ من الحياة سريعًا على الجهة الأخرى من الرصيف، تحت العاصفة المزمجرة.

كان رجلًا ضخمًا، وجهه يتجه إلى أسفل، عيناه مفتوحتان، وكان رأسه آخذًا في الصلع، وبلحية مدببة.. في حالة الموت، كما في سكتشات الشرطة، تعمد الوجوه للتشابه.. أكيد هو شخص متفرد بذاته، لكنه بحالته هذه يمكنه أن يكون أي شخص.

كان «إيرل» لا يزال يبتسم للجسد بينما السيارة تبتعد عن الرصيف.. سيارة؟ من يمكنه أن يجزم بأنها كذلك؟ ربما كانت سيارة شرطة.. ربما كان مجرد تاكسي.

بينما الزحام يبتلع السيارة، كانت عينا «إيرل» ما زالتا تلمعان وسط ظلام المساء، وهما تشاهدان الجسد، حتى اختفى وسط دائرة من رجال الإسعاف. ضحك في سره بينما تبتعد السيارة عن الزحام.

بهتت ابتسامة «إيرل» بعد قليل.. حدث شيء له.. بدأ في التربيت على جيوبه.. بهدوء في البداية، كأنه رجل يبحث عن مفاتيحه، ثم ببعض اليأس.. أعاقته الأصفاد التي تكبل يديه!

بدأ يفرغ محتويات جيوبه على الكرسي المجاور له: بعض النقود.. مجموعة من المفاتيح، وقصاصات من الورق.

خرجت كتلة معدنية مستديرة من جيبه وانزلقت على الكرسي الجلدي. صار «إيرل» مرعوبًا الآن. أخذ يدق بقوة على الجدار البلاستيكي الذي يفصله عن السائق، طالبًا من الرجل أن يعطيه قلمًا.. ربما كان السائق لا يتحدث الإنجليزية جيدًا، أو ربما كان شرطيًّا وليست لديه الرغبة في الحديث مع المتهمين.. في كل الأحوال، ظل الجدار الفاصل بين الرجل بالأمام والرجل الموجود بالخلف مغلقًا.. وكان واضحًا أنه لن يكون هناك قلم في متناول «إيرل» قريبًا.

عبرت السيارة مطبًا، ووجد «إيرل» نفسه يحدق في انعكاسه بالمرآة الخلفية.. صار هادئًا الآن.. انعطف السائق بالسيارة، وانزاقت الكتلة المعدنية ثانية لتستقر عند ساق «إيرل» مصدرة صليلًا.. التقطها وتفرس فيها شاعرًا بالفضول.. كانت الكتلة مجرد جرس صغير.. جرس معدني صغير.. وكان منقوشًا عليه اسمه وبعض التواريخ.. استطاع تمييز أول تاريخ فيهم: العام الذي وُلد فيه.. لكن لم يعنِ التاريخ الثاني شيئًا له.. لم يذكِّره بأي شيء على الإطلاق.

بينما يقلب الجرس بين يديه، لاحظ المساحة الفارغة على رسغه، والتي كانت المساحة التي تحتلها ساعته.. وجد سهمًا صغيرًا مكانها، يشير إلى أعلى نحو ذراعه.. نظر «إيرل» نحو السهم، ثم بدأ يشمر عن كمه.

«ستتأخر حتى عن جنازتك»!

«اعتادت زوجتك أن تقولها، أتتذكر؟ كلما فكرت في الموضوع أكثر، بدا له ما قالته مبتذلًا.. أي أحمق هذا الذي سيكون متعجلًا للوصول لنهاية قصته؟

وعلى أية حال، كيف سأعرف ما إذا كنت قد تأخرت؟ لم يعد لدي ساعة.. لا أعرف ما فعلناه بها.

ما حاجتك بحق الجحيم لساعة من الأصل؟ كانت مجرد تحفة.. مجرد وزن لا فائدة منه معلق بمعصمك.. رمز لنسختك القديمة.. نسختك التي كانت تؤمن بالوقت.

لا، أنسى ما قلته.. الأمر ليس أنك أنت من فقد إيمانه بالوقت بقدر ما كان الوقت هو من فقد إيمانه بك.. من يحتاج إليه على أية حال.. من يرغب في أن يكون واحدًا من هؤلاء الحمقى الذين يعيشون في حماية المستقبل، في أمان اللحظة تلو الأخرى حيث شعروا بشيء من القوة؟ سيعيشون بعد ذلك في اللحظة التالية، حيث لن يشعروا بشيء مطلقًا.

زاحفين أسفل عقارب الساعة، مبتعدين عن الناس الذين فعلوا بهم أشياء لا تُحكى.. مصدقين كذبة أن مرور الوقت سيسمح لكل الجروح بالشفاء، وهي مجرد صيغة لطيفة لقول إن الوقت يميتنا.

لكنك مختلف.. أنت أفضل.. الزمن يتكون من ثلاثة أجزاء لمعظم الناس.. لكن بالنسبة لك، بالنسبة لنا، فهو شيء واحد فقط مفرد.. لحظة واحدة، وهي اللحظة الحاضرة.. كأنك أنت مركز الساعة، المحور الذي يدور العقرب حوله.. الوقت يتحرك من حولك لكنه لا يمسَّك.. لقد فقد قدرته على التأثير عليك.. ماذا كانوا يقولون؟ إن الوقت يسرقنا؟ لكن ليس بالنسبة لك.. أغلق عينيك وسيكون بوسعك أن تبدأ من جديد.. احتضن ذلك الشعور المهم، منتعش كأنك زهرة.

الوقت سخيف.. فكرة غامضة.. الشيء الوحيد الذي يهم فعلًا هو اللحظة الراهنة.. هذه اللحظة تساوي الملايين.

يجب أن تثق بي.. لو تكررت تلك اللحظة كما ينبغي، لو استمريت في المحاولة، سينتهي الأمر بك، وقد حققت النقطة التالية المكتوبة في قائمتك.

لا يمكنك أن تحظى بحياة عادية بعد الآن.. يجب أن تعرف هذا.. كيف يمكنك أن تحظى بصديقة حميمة بينما ليس بوسعك تذكر اسمها؟ لا يمكنك أن تحظى بأطفال، ما لم تكن تريدهم أن يكبروا مع أب ليس بوسعه تمييزهم.. لا يمكنك طبعًا الاحتفاظ بعمل؛ فليست هناك الكثير من الوظائف التي تقدر قيمة النسيان.. فتيات الليل ربما تحتجن إلى تلك الصفة، والسياسيون طبعًا.

هذه هي مأساة الحياة.. لأن المرء لدقائق قليلة كل يوم، يكون عبقريًّا.. لحظات من الوضوح، البصيرة، أو أيًّا كان الاسم الذي تريد إطلاقه عليهم.. تتفرق السحب، وتنتظم الكواكب في مداراتها، ويصبح كل شيء واضحًا.. يجب أن أتوقف عن التدخين، ربما، أو هذه هي الطريقة التي ستمكنني من الحصول على مليون دولار سريعًا، أو أن كذا وكذا هو مفتاح السعادة الأبدية.. هذه هي الحقيقة المأساوية.. للحظات معدودة، تتكشف أسرار الكون لنا.. ما الحياة إلا خدعة سحرية رخيصة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ميمينتو!
ما المحدد لماهية المرء؟ أفعاله أم ذكرياته؟

محمد عبد العزيز

«شقيقان لديهما فكرة قصة، واحد منهما حولها لأفضل أفلام هذا الخريف، «ميمنتو»، والآخر كتب تلك القصة القصيرة». - هيرمان ميلفيل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مبدئيًّا، منذ أول مرة شاهدت فيها فيلم «ميمنتو».. أحببت «كريستوفر نولان».. انبهرت بعقليته.. لهذا غالبًا سيكون كلامي التالي متحيزًا. عندما قرأت القصة القصيرة التي كتبها أخوه «جوناثان» لم يقل انبهاري.. شعرت أن الفيلم يكمل القصة، والعكس صحيح، صحيح أنهما يختلفان في الكثير من التفاصيل، لكن تلك النقطة في صالح أن تقرأ القصة وتشاهد الفيلم، دون أن يحرق أحدهما أحداث الآخر.

جدير بالذكر، أن نص «جوناثان» رغم أنه يعد مصدر الفيلم وأصله، غير أنه لم يُنشر إلا بعد ظهوره على الشاشة بكثير.

المفارقة الأخرى.. أن هذه القصة المبتكرة جاءت بقلم شاب لم يتخطَ مرحلة الجامعة، كان «جوناثان نولان» لا يزال طالبًا حينذاك.

تحمس شقيقه «كريستوفر» لإعادة صياغة الحبكة، فجعلها عماد فكرة فيلمه الثاني. تشارك الشقيقان في كتابة المعالجة السينمائية، الذي ترشحا عنه لجائزة الأوسكار فئة أحسن سيناريو مكتوب للشاشة.

بداية قوية بلا شك، شجعت على استمرار الثنائي معًا في كتابة السيناريوهات التي يقوم الأخ الأكبر بإخراجها The prestige (2006)، The Dark Knight (2008)، The Dark Knight Rises (2012)، وأخيرًا فيلم الخيال العلمي الذي أبهر العلماء والعامة على السواء: Interstellar (2014).

لكن - للغرابة - لم يحصل «كريستوفر نولان» على ترشيحه الأول لأوسكار أحسن مخرج، إلا عن فيلمهDunkirk (2017).

في المقابل، لم تقتصر مسيرة «جوناثان» على المشاركة في كتابة سيناريوهات الأفلام التي يخرجها شقيقه، وإنما ظهر اسمه - مستقلًا - في تترات مسلسلات شهيرة مثل دراما الخيال العلمي (Person of Interest) الذي قام فيه بأدوار الكتابة والإخراج والإنتاج التنفيذي، وكذلك المسلسل ذائع الشهرة (West world) المأخوذ عن رواية (مايكل كرايتون)، التي تحمل الاسم نفسه.

لكن لأنه لا توجد عائلة كاملة، لا يعلم الكثيرون أن «كريستوفر» و«جوناثان» لهما شقيق أكبر يدعى «ماثيو فرانسيس نولان»، مدان في جريمة، يقضي عقوبته وراء القضبان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمحورت فكرة نص «جوناثان» - الذي قرأناه منذ قليل - حول «إيرل» الذي أصيب بصدمة عصبية نتيجة قتل زوجته، تسببت تلك الصدمة في عدم احتفاظ مخه بأي ذكريات لأكثر من عشر دقائق، ينسى بعدها كل شيء، ليبدأ من جديد، لهذا كان البطل يسخر من نفسه دومًا في القصة بتسمية نفسه «رجل الدقائق العشر»، والمفترض أن يعتمد على الدقائق القليلة، والوشوم التي صنعها على جسده، والإرشادات التي تركها لنفسه على قصاصات وصور فوتورافية، كي يتمكن من تتبع قاتل زوجته، والانتقام منه!

التلاعب في الخط الزمني:

أخمن أنه يمثل شغفًا لدى «نولان»، ظهر ذلك واضحًا في ثلاثة من أهم أفلامه: استهلال Inception.. منحنا «كريستوفر» عالمًا متعددَ الطبقات، كل منهم يسير بإيقاع زمني أبطأ من الذي يعلوه. من شاهدوا الفيلم لا يزالون يتذكرون الحيرة التي تسببت فيها الخطوط الزمنية الكثيرة والأبعاد المتداخلة، لدرجة أنني عجزت في أثناء مشاهدته - أحيانًا - عن التمييز إذا ما كان المشهد الذي أمامي يدور في الواقع أم عالم الأحلام! غنى عن الذكر طبعًا أنك تحتاج إلى مشاهدة (Inception) أكثر من مرة كذلك لتتمكن من استيعاب جميع التفاصيل.

(بين النجوم Interstellar): عرض الفيلم تصورًا دقيقًا عن مفهوم «نسبية الزمن»، لدرجة أنهم استعانوا بالفيزيائي الشهير «كيب ثورن»، وتم تغيير بعض أحداث السيناريو، بناءً على تصحيحاته. كما أشرف على معالجة الحاسب لـ(800) تيرابايت من البيانات، ليجعل الثقوب السوداء تظهر بالشكل الدقيق والمبهر الذي رأيناه في الفيلم. كان الظن السائد - سابقًا - أن الثقب يأخذ شكل قرص أسود حوله هالة، إلا أن Interstellar أثبت أن ذلك ليس صائبًا بنسبة 100%. صدق أو لا تصدق، قام الفيزيائيون بتصحيح معلوماتهم، بناءً على الفيلم. وهكذا.. ليس من المفاجئ أن نعلم باقتناصه جائزة أوسكار فئة أحسن مؤثرات بصرية.

هل ذكرت أن فكرة الفيلم كانت تراود «جوناثان» ويحتفظ بها في درجه منذ عام 2007م، قبل أن يقرر أخيرًا إخراجها للنور؟ تُرى أي أفكار لامعة أخرى، قد لا تزال مختبئة في درج «جوناثان»؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بالعودة إلى عنصر الزمن في الفيلم الذي يستهدفه - بالأساس - مقالنا، عرض الأخوان «نولان» أحداث «ميمنتو» في شكل خطين زمنيين متوازيين، أحدهما يجسد «الحاضر»، والآخر عبارة عن «فلاش باك» يوضِّح حياة البطل قبل الحادثة، لكن اللعبة الأساسية تمثلت في تقديم خط الزمن الحاضر بشكل معكوس! سمعت فيما بعد أنه صور الأحداث بترتيبها الزمني الطبيعي، قبل أن يقرر في مرحلة المونتاج أن يعرضها بالمقلوب، هكذا يكون آخر مشهد بالفيلم هو نقطة

البداية! اضطررت طبعًا لمشاهدة الفيلم عدة مرات لأن الكثير من التفاصيل سقطت مني، فأجد نفسي انتبهت إلى تفاصيل أخرى غير التي كنت أنتوي التركيز معها، «أرجوكم قولوا إن هذا ما حدث معكم أيضًا، كي لا أشعر بالغباء». باختصار، ينتمي «ميمنتو» إلى نوعية الأفلام التي تحتاج إلى أربع أو خمس مشاهدات على الأقل، كي تتمكن من جمع الصورة بشكل كامل. لا يمكن إنكار مدى ذكاء اختيار تلك التقنية مع قصة «ميمنتو» بالذات، لأنه يجعل المتفرج بلا معلومات عن «ليونارد» أكثر مما لدى «ليونارد» عن نفسه.. لا شيء تقريبًا!

لو عرضت الأحداث بالترتيب الزمني الطبيعي أظنُّ أن معظم سحرها سيتبخر. لفت نظري طريقة استخدام الألوان وملابس وتصفيف شعر البطل، لتفريق لقطات «الفلاش باك» عن التي تدور في الحاضر، طريقة بسيطة ومميزة دون الكثير من الإبهار، تعين أي شخص بوسعه تمييز زمن المشهد بسهولة.. وفي فيلم مربك ومتشابك الأحداث كهذا، فهذه خطوة مهمة جدًّا.

قام «نولان» في الفيلم بتغيير اسم البطل إلى «ليونارد»، الذي لم يعد موجودًا بمصحة، وإنما يسكن شقة بمفرده، ومثلما حدث بالقصة، يغطي جسده بالوشوم، والصور الفوتوغرافية بالكتابة التي تساعده على تذكر أبسط الأنشطة اليومية والمعلومات الأساسية.. لكن لأنه حر، فبوسعه أن يتجول ويبحث ويطرح الأسئلة بالفيلم، أكثر مما كان بوسع «إيرل» في القصة.. فارق آخر بين المعالجتين.. يتجسد في أن «كريستوفر» مرر للمشاهد بعض التفاصيل عن حياة البطل السابقة، مثل عمله كمحقق بشركة التأمين لتحديد ما إذا كان مطالبو التأمين يستحقونه فعلًا؟ أم نصابون يحاولون استغفال الشركة؟ علقت بذاكرتي بالذات قصة العجوز وزوجها اللذين حاولا مطالبة الشركة بالتأمين عقب إصابة الزوج بحادث، لكن بسبب «ليونارد»، اعتبرتهما الشركة محتالين، وامتنعت عن سداد قيمة التأمين، وهي مفارقة أثارت إعجابي عندما شاهدت الفيلم، لأنه الموقف نفسه الذي صار إليه «ليونارد» فيما بعد، لأن حالته تشابهت مع ما صار للزوج: كلاهما لا يتذكر شيئًا تقريبًا!

لا أظن أنه كان بوسع «نولان» الإتيان بممثل أنسب لأداء شخصية «ليونارد» من الممثل «جاي بيرس». بدا الدور وكأنما خُلق له، لدرجة أنني عندما شاهدته في أفلام تالية، لم أتمكن من إزالة صورته الأولى من رأسي. مثّل دور الرجل العاجز عن تذكر أي شيء لأكثر من عشر دقائق.. شاركته في البطولة النادلة «ناتالي» التي ظننته في البداية مخادعًا، قبل أن تتيقن من صدقه، وتقرر مساعدته. نحن نتحدث عن الممثلة «كاري آن موس» التي اشتهرت بدورها في فيلم (Matrix أو المصفوفة).

في القصة.. تجاهل «جوناثان» إعطاء أي أهمية لمشهد المواجهة بين البطل وقاتل الزوجة. اكتفى بالسرد المفصل لما قبله وما بعده، ليترك لخيال القارئ ملء ما بينهما. بينما على الجانب الآخر، أعطى «كريستوفر» هذه النقطة حقها، ليشفي غليلنا من المجرم الذي تسبب في حدوث كل هذا!

ختامًا، عندما سؤل «جوناثان» عن أبرز الاختلافات بينه وبين أخيه، قال: «أظنُّ أن للأمر علاقة بكونه أعسر بينما أنا لا.. بوسعه أن ينظر لأفكاري ويعبث بها، لتخرج من تحت يديه أكثر تشويقًا وإثارة! من حسن الحظ أن بوسعنا العمل معًا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

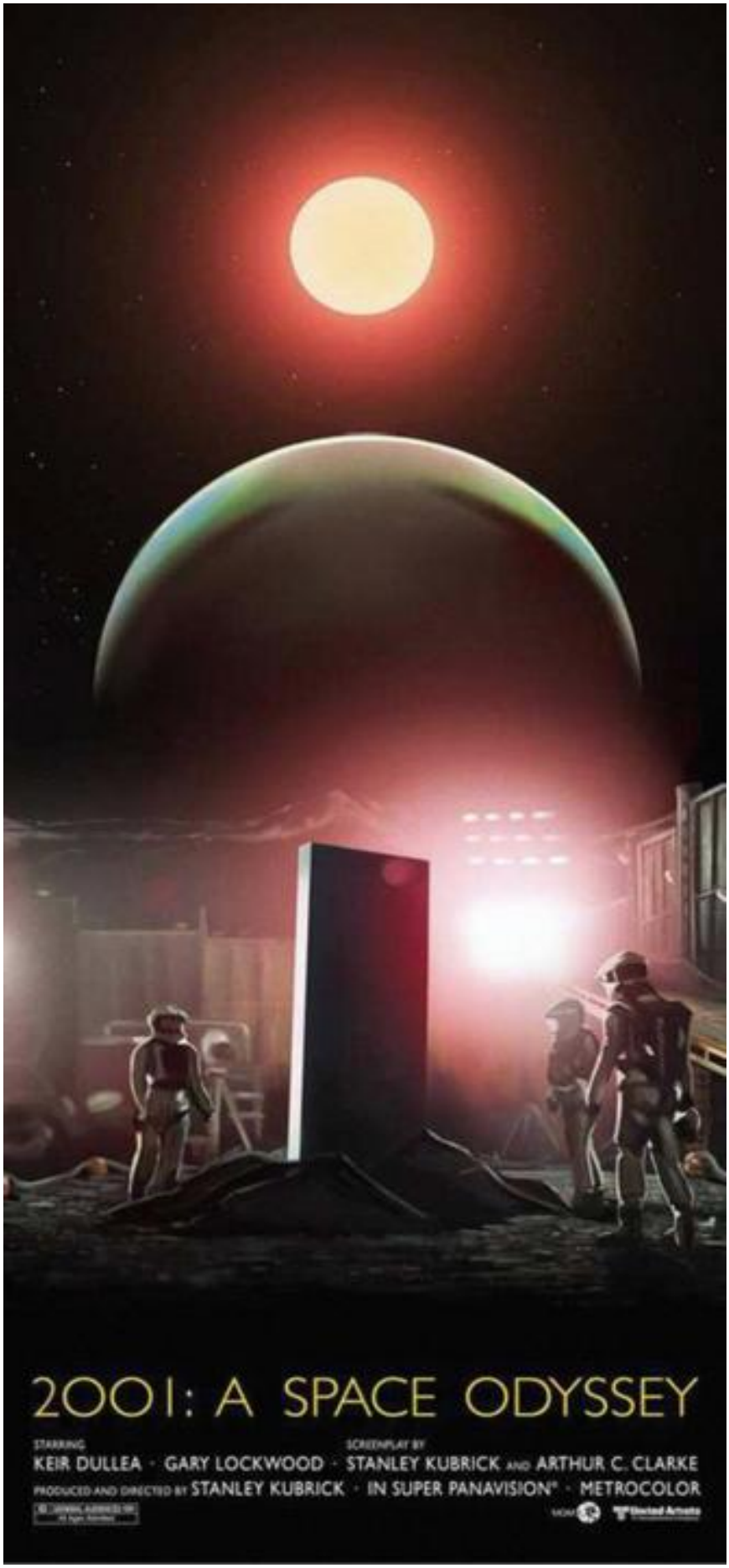
2001: A SPACE ODYSSEY
STARRING
KEIR DULLEA · GARY LOCKWOOD
SCREENPLAY BY
STANLEY KUBRICK AND ARTHUR C. CLARKE
PRODUCED AND DIRECTED BY STANLEY KUBRICK · IN SUPER PANAVISION® · METROCOLOR

3- الحارس([6])
تأليف: آرثر كلارك

ترجمة: نادر أسامة

في المرَّةِ المقبلة التي ترى فيها القمر بدرًا ويرتفع عاليًا في الجنوب، تمعَّن جيِّدًا في تخومه اليُمنى، ودع بصرك يرتحل صعودًا عبر طول مُنحنى القُرص. في اتِّجاه إشارة عقارب الساعة إلى الثانية، ستلحظ بقعة بيضاوية صغيرة وداكنة.

أيُّ شخص سليم النَّظر يستطيع إيجادها بسهولة كبيرة. إنها سهلٌ مُسَوَّر عظيم، من أجمل ما يوجد على القمر، ويعرف باسم «مار كريسيوم»، أو «بحر الشدائد». قطره يبلغ ثلاثمِئة ميل، ومُحاط بالكامل تقريبًا بحلقةٍ مهيبةٍ من الجبال. تلك البُقعة لم تُستكشف إلا في أواخر صيف عام 1996.

كانت بعثتنا كبيرة. حلَّقت اثنتان من سُفنِ الشحنِ الثقيلة كي تنقل إمداداتنا ومُعدَّاتنا من القاعدة القمرية الرئيسية القابعة في بحر السكينة على بُعد خمسمئة ميلٍ.

كان لدينا أيضًا ثلاثة صواريخ صغيرة مُعدَّة للنقل الجوي قصيرة المدى في المناطق التي يتعذَّر على مركباتنا الأرضية تخطِّيها. من حُسن حَظِّنا، مُعظم قفار بحر الشدائد مُنبسطة تمامًا. لا وجود لأيٍّ من الصدوع الكبيرة بالغة الخطورة الشائِعة جدًّا في المناطق الأخرى، ويوجد عددٌ قليل جدًّا من الفوَّهات والجبال باختلاف أحجامها. بقدر علمنا، جرَّاراتنا القويَّة طراز «كاتربيلر» لن تواجه صعوبة تُذكَر في حملنا أينما رغبنا الذهاب.

أنا چيولوچي - أو سلينولوجي (چيولچي قمري) إذا أردتَّ أن تكون مُتحذلِقًا - مسؤول عن مجموعة استكشاف النطاق الجنوبي من بحر الشدائد. لقد قطعنا مِئة ميل منه في أسبوع، مُلتفِّون حول سفوح الجبال التي تَجِد ما كان شاطئ بحر قديم منذ نحو ألف مليون سنة مضت.

في الوقت الذي دبَّت الحياة فيه على سطح الأرض، كانت تحتضر هنا. في مكان السهول التي نقطعها الآن، كان يوجد مُحيط بائد عديم المدّ عُمقه نصف ميل. لكن الأثر الوحيد الباقي من النداوةِ حاليًّا، هو الصقيع الذي يُصادفه المرء أحيانًا في الكهوف التي لم تخترقها أشعة الشمس الحارقة قط.

بدأنا رحلتنا باكرًا في فجر القمر بطيء الزَّحف. ما زال أمامنا أسبوع تقريبًا بتوقيت الأرض قبل حلول الظلام. كل يوم نترك مركبتنا نحو ست مرَّاتٍ ونذهب للبحث عن المعادن المُثيرة للاهتمام، أو لوضع علامات إرشادية لمن سيأتي بعدنا في المستقبل.

كان استكشافنا عملًا روتينيًّا هادِئًا. لا يوجد شيءٌ خطِر أو حتَّى مُثير بشكل خاص فيما يتعلَّق باستكشاف القمر. نستطيع العيش بيُسر لمدَّة شهر في قاطراتنا مُتعادلة

الضَّغط، وإذا حدثت مُشكلة ما، يمكننا دومًا الاتِّصال بالراديو لطلب المُساعدة، ثم الجلوس في أماكننا إلى أن تأتي إحدى سُفُن الفضاء لنجدتنا.

قُلتُ إنه لا يوجد شيءٌ مُثير بخصوص استكشاف القمر، لكن هذا ليس صحيحًا بالطبع. المرء لا يستطيع أن يمل مشهد تلك الجبال البديعة الأكثر وعورة بكثير من التلال اللطيفة على الأرض. لم نكن نعلم قط، ونحن نجوب خلجان ونتوءات ذلك البحر البائد، أيُّ روائع ستتكشَّف لنا. إن مُنحنى «بحر الشدائد» الجنوبي بأكمله عبارة عن دلتا شاسعة، وَجَدَت خلالها مجموعة من الأنهار فيما مضى طريقها إلى المحيط، تغذِّيها – رُبَّما - الأمطار الغزيرة التي لا بُدَّ أنها استمرَّت في ضرب الجبال إبَّان العصر البُركاني الوجيز في حقبة شباب القمر.

كلٌّ من هذه الوديان العتيقة كان بمثابة دعوة.. يتحدَّانا للتسلُّق وصولًا إلى الأراضي المُرتفعة على الجانب الآخر. لكن نحن أمامنا مِئة ميل لم نُغطِها بعد، ولم يكن في وسعنا سوى النَّظر بتوقٍ إلى المُرتفعات التي لا بُدَّ أن آخرين سيتسلَّقونها.

أبقينا على التوقيت الأرضي في القاطرة. في تمام الساعة 22:00، تم نقل آخر رسالة راديو إلى القاعدة، وهكذا أصبح في استطاعتنا غلق أبوابنا لهذا اليوم. في الخارج، تستمر الصخور في التَّحمُّص تحت أشعة الشمس شبه العمودية، لكن بالنسبة إلينا يكون الليل قد حلَّ، إلى أن نستيقظ مرَّة أخرى بعد ثماني ساعات. عندها يقوم أحدنا بتحضير الإفطار، وتحدث ضجَّة عظيمة من أزيز آلات الحلاقة الكهربائية، ويُشغِّل أحدهم الراديو على الموجة القصيرة المقبلة من الأرض. وبالفعل، عندما تبدأ رائحة قلي النَّقانق في ملء المقصورة، يكون من الصعب أحيانًا تصديق أننا لسنا في عالمنا. كل شيء يصير طبيعيًّا وحميميًّا جدًّا، بصرف النظر عن الشعور بانخفاض الوزن، وبطء الأغراض غير الطبيعي في سقوطها.

كان الدَّور قد جاء عليَّ لإعداد الإفطار في رُكن المقصورة الرئيسية الذي كان بمثابة مطبخنا. أستطيع تذكُّر تلك اللحظة بوضوح بعد كل تلك السنوات، حيث كان الراديو يذيع أحد ألحاني المُفضَّلة، المقطوعة الويلزية القديمة، «ديـ□يد من الصخرة البيضاء» «David of the White Rock».

كان سائقنا في الخارج بالفعل، مُرتديًا بزَّته الفضائية، ويفحص جنازير جرَّارنا. بينما مُساعدي، «لويس جارنت»، يجلس في مركز المُراقبة يُقيِّد بعض البنود المُتأخِّرة في سجل يوم أمس.

في أثناء وقوفي جوار المِقلاة، كأيِّ ربَّة منزل أرضية، مُنتظرًا تغيُّر لون النَّقانق، تركت بصري يطوف بلا اكتراث عبر الجدار الجبلي الذي يُغطِّي الأفق الجنوبي برمَّته، ويمتد بعيدًا عن النظر إلى الشرق والغرب أسفل انحناء سطح القمر.

بدت الجبال كأنها على بُعد ميل أو ميلين من القاطرة، لكنني كنت أعرف أن أقربها يبعد عشرين ميلًا. على سطح القمر، لا تقل التفاصيل وضوحًا مع ازدياد

المسافة بالطبع، حيث لا وجود لتلك الغشاوة التي تكاد لا تُدرك، والتي تُخفِّف - وأحيانًا تخفي - كل الموجودات البعيدة على سطح الأرض.

تلك الجبال ترتفع عشرة آلاف قدم في الهواء، وهي تخرج بزاوية حادَّة من الأرض كما لو أنها في عصورٍ مضت دُفِعت بواسطة انفجار جوفي ما عبر القشرة المُنصهرة نحو السماء. كان سفح أقرب الجبال مُخفًى عن البصر بسبب السهل شديد الانحدار. القمر عالم صغير جدًّا، ومن موقعي كان الأُفُق يبعد ميلين فقط.

نقلت بصري نحو القمم التي لم يتسلَّقها إنسانٌ من قبل.. القمم التي شهدت قبل قدومنا الغوص الكئيب للمُحيطات المُنحسرة إلى قبورها الجوفية، طامرة معها الأمل الواعد في تأسيس عالم يعج بأشكال الحياة. كانت أشعة الشمس تضرب الجدار الجبلي بوهجٍ يؤذي العيون، لكن فوقها بقليل، تلمع النجوم بثبات في سماءٍ أكثر حُلكة من سماءٍ مُنتصف ليل الشتاء على الأرض.

كنت أشيح ببصري بعيدًا عندما لمحت عيناي تألُّقًا معدنيًّا على قمَّةٍ نتوء هائل يطعن السماء على بُعد ثلاثين ميلًا في اتِّجاه الغرب. كانت نقطة ضوء بلا أبعاد، وكأن نجمًّا قد وقع في براثن واحدة من تلك القمم القاسية. تصوَّرت أن صخرةٍ ملساء تقتنص أشعة الشمس وتعكسها مُباشرةً إلى عينيَّ.

مثل هذه الأشياء ليست نادرة. عندما يكون القمر في تربيعه الثاني، يلاحظ المراقبون على الأرض أحيانًا توهُّج نطاقات هائلة، في محيط العواصف، باللونين الأزرق والأبيض، وذلك عندما تضرب أشعة الشمس مُنحدراتها، وتقفز بعدها من عالمٍ إلى عالم. لكن - بالرغم من هذا – شعرت بالفضول لمعرفة نوع الصخرة التيً تسطع بكل هذا الوضوح هناك في الأعلى، لذا صعدت إلى بُرج مُراقبتنا ووجَّهت التليسكوب نحو الغرب.

ما رأيته كان كافيًا لإثارة حماستي. بوضوحٍ شديد، ودقَّة مُذهلة في مجال الرؤية، كانت قمم الجبال تبدو كأنها تبعد نصف ميل فقط. لكنَّ أيًّا كان ما يقتنص أشعة الشمس، لا بُدَّ أن حجمه صغير جدًّا لسبر غوره من موقعي هذا. ومع ذلك، بدا لي أن له تماثُلًا شكليًّا مُراوغًا، والقمَّة التي يتَّكئ فوقها كانت مُستوية بشكل يثير الفضول. حدَّقت طويلًا إلى ذلك اللُّغز البرَّاق، مُجهدًا عيني في الفضاء، إلى أن شممتُ رائحة احتراق قادمة من المقلاة أنبأتني أن إفطارنا قطع رحلة ربع المليون ميل إلى القمر سُدى.

طيلة ذلك الصباح شققنا طريقنا عبر بحر الشدائد، بينما الجبال الغربية تنتصب شامخة في وجه السماء. كان النقاش يستمر حيويًّا بيننا عبر الراديو حتَّى عندما نكونٍ في الخارج نُنقِّب تُربة القمر في بِزَّاتنا الفضائية. جادلني رفاقي أنه من المؤكَّد تمامًا انعدام وجود أيّ شكل من أشكال الحياة الذكية على القمر في أيِّ وقتٍ مضى. الأحياء الوحيدة التي عرفها الوجود هنا لا تتعدَّى بعض النباتات البدائية، وأجدادها الأقل تخلُّفًا. كنت أعرف هذا كالجميع، لكن في أوقاتٍ بعينها يجب ألا يخشى العالِم أن يجعل من نفسه أضحوكة.

قلت لهم في النهاية:

- اسمعوا. أنا ذاهب إلى هناك، ولنقل للترويح عن عقلي. هذا الجبل ارتفاعه أقل من اثنتي عشرة قدمًا، وهذا يعني ألفي قدم فقط في جاذبية الأرض. أستطيع قطع المسافة في عشرين ساعة. لطالما كنت أرغب في زيارة تلك التلال. على أيِّة حال، هذا الشيء يُعطيني حجة ممتازة.

قال «جارنت»:

- إذا لم تدق عُنُقك، ستصبح أضحوكة البعثة عند عودتنا إلى القاعدة. هذا الجبل رُبَّما سيُدعى «حماقة ويلسون» من الآن فصاعدًا.

قلت في حزم:

- لن أدق عُنُقي. من كان أوَّل من تسلَّق «بيكو وهليكون»؟

سأله «لويس» بلطف:

- لكن، ألم تكن أصغر سِنًّا في تلك الأيام؟

قلت وقد أخذتني العِزَّة بالنفس:

- هذا سببٌ آخر جيِّد للذهاب.

خلدنا إلى النوم باكرًا في تلك الليلة، بعد قيادة القاطرة إلى مسافة نصف ميل من النتوء الصخري. في الصباح، سيصحبني «جارنت». إنه مُتسلِّق جيِّد، وكثيرًا ما رافقني في مثل هذه الرحلات من قبل. بدا سائقنا سعيدًا جدًّا لكونه سيصبح مسؤولًا عن الآلة في غيابنا.

لأول وهلة، بدت تلك الجروف عصيَّة على التسلُّق، لكن بالنسبة إلى أيِّ شخص لا تزعجه المُرتفعات، يُعد التسلُّق هيِّنًا في عالم تبلغ فيه جميع الأوزان سدس قدرها العادي. الخطر الحقيقي في تسلُّق الجبال القمرية يكمن في الثِّقة المُفرطة. سقطة من ارتفاع ستمِئة قدم على القمر ستقتلك بالكفاءة نفسها التي تقتلك بها سقطة من ارتفاع مِئة قدم على الأرض.

أخذنا استراحتنا الأولى عند حافة عريضة ترتفع نحو أربعة آلاف قدم عن السَّفحِ. لم يكن التسلُّق شديدَ الصعوبة، لكن أطرافي الأربعة تيبَّست من المجهود غير المُعتاد، وكنت سعيدًا لتوقُّفنا. كنَّا لا نزال قادرين على رؤية القاطرة، لكنها بدت كحشرة معدنية بعيدًا عند سفح الجرف. أبلغنا السائق بوضعنا ومقدار تقدُّمنا قبل أن نبدأ صعودنا التَّالي.

كان الهواء داخل بِزَّتينا باردًا بشكلٍ مُنعش، فوحدات التبريد تُكافح حرارة الشَّمس الضارية في الخارج، وتتخلَّص من حرارة أجسادنا الزائدة من جراء المجهود. نادرًا ما تحدَّث أحدنا إلى الآخر، باستثناء تمرير معلومات التسلُّق ومناقشة أفضل خطَّة صعود مُحتملة. لم أعلم فيما كان «جارنت» يُفكِّر، رُبَّما هذه هي مُطاردة الأوز الأكثر جنونًا التي شرع فيها طيلة حياته. كنت أوافقه إلى حدٍ كبير، لكن

مُتعة التسلّق، ومعرفة أن لا إنسان خطا هنا من قبل، وبهاء المشهد الذي يتّسع باطِّراد، أعطتني جميعها المُكافأة التي كنت أحتاج إليها.

لا أذكر أنني تحمَّست بشكلٍ خاص عندما شاهدت أمامنا الحائط الصخري الذي تفحَّصته أوَّل مرَّة من مسافة ثلاثين ميلًا. كان يرتفع نحو خمسين قدمًا فوق رأسينا. هناك، على قمَّة الهضبة، يوجد الشيء الذي أغواني لعبور هذه القفار القاحلة.

إنه - بكل تأكيد - لن يعدو جلمود صخرٍ انفلق منذ زمنٍ بعيد مِن قِبَل نيزك، وظلَّ سطحه جديدًا ومُشرقًا في ظل هذا السكون الأبدي الذي لا يتغيَّر.

لم يكن يوجد موضعٌ للتشبُّث على وجه الصخرة أمامنا، لذا تحتَّم علينا استخدام الكلّابات. بدت ذراعي المُتعبة كأنها حصلت على عزم جديد وأنا أطوِّح الخُطَّاف المعدني ثلاثي المحاور فوق رأسي ثم أرسله ليُبحر عاليًا نحو النجوم. أخفقت في المرَّةِ الأولى وانفصل الخُطّاف ساقطًا ببطء إلى الوراء عندما جذبت الحبل. في المحاولة الثالثة، تشبَّث الخطَّاف بثبات كامل بحيث لم يقدر وزنانا مُجتمعين على زحزحتها.

نظر «جارنت» إليَّ متوتِّرًا. لاحظت أنه يريد الصعود أوَّلًا، لكنني ابتسمت له عبر زجاج خوذتي وهززت رأسي. ثم ببطء، ودون أيِّ تعجُّل، بدأت الصعود الأخير.

حتَّى مع ثِقَل بِزَّتي الفضائية، كنت أزن أربعين باوندًا فقط هنا، لذا أخذت أسحب نفسي إلى أعلى مُستخدمًا ذراعيَّ دون أن أُكلِّف نفسي عناء استخدام قدميَّ. عند الحافَّة توقَّفت، ولوَّحت لمُرافقي، ثم تدحرجت فوقها ونهضت مُعتدلًا، مُحدِّقًا أمامي.

يجب أن تفهم أنني حتَّى هذه اللحظة كنت مقتنعًا بشكل شبه تام أنه لا شيء غريب أو غير اعتيادي ينتظرني هنا. الشَّك المؤرِّق كان ما يحثّني على الاستمرار. حسنًا، لم يعد يوجد مجالٌ للشكِّ، لكن الأفكار المؤرِّقة قد بدأت لتوِّها.

كنت أقف على هضبة عرضها مِئة قدم تقريبًا. منذ زمنٍ بعيد كانت ناعمة ومستوية جدًّا. ناعمة إلى حدٍ ينفي كونها طبيعية. لكن النيازك الساقطة نقرت سطحها وشوَّهته عبر دهورٍ لا تُحصى. كانت الهضبة قد سُوِّيت تمامًا لتدعم هيكلًا لامعًا هرمي الشَّكل تقريبًا، بارتفاعِ رجلين، ومُثبَّت في الصَّخر كجوهرةٍ عملاقةٍ مُتعدِّدة الأوجه.

في الثواني القليلة الأولى، غالبًا لم يسجِّل عقلي أيّ انفعال. ثم شعرت بفورانٍ هائل في قلبي، وسعادة غريبة يتعذَّر تفسيرها. كنت أحب القمر، والآن عرفت أن طحالب فوَّهات «إراتوستينس» و«أرسطرخس» المُتعرِّشة لم تكن شكل الحياة الوحيد الذي طوَّره الكويكب في ريعان شبابه.

إن حلمَ المستكشفين الأوائل القديم حقيقة واقعة. لقد وُجِدَت يومًا ما حضارة قمرية بعد كل شيء، وأنا أوَّل من اكتشفها. كوني أتيت مُتأخِّرًا مِئة مليون سنة تقريبًا

أمرٌ لم يحزنني، يكفيني فقط أنني أتيت.

عاد عقلي للعمل بشكلٍ طبيعي. عاد للتحليل وطرح الأسئلة. هل هذا بناء، صرحٌ مُقدَّس أو شيءٌ ما لا اسم له في لغتي؟ إذا كان بناءً، لماذا شُيِّد في ذلك المكان الفريد الذي يتعذَّر الوصول إليه؟

تساءلت إذا ما كان معبدًا.. وبدأت أتخيَّل جماعة من الكهنة يتضرَّعون إلى آلهتهم كي تحفظهم في الوقت الذي كانت الحياة فيه تخمد وتنحسر مع احتضار المُحيطات.. يتضرَّعون إلى آلهتهم دون جدوى.

سرت عشْر خطوات إلى الأمام لفحص الشيء عن كثب، لكنْ شعور غريزي حَذِر منعني من الاقتراب أكثر من اللازم. إن معرفتي بعلم الآثار محدودة، لذا حاولت تخمين المستوى الحضاري لتلك الأمَّة التي سوَّت هذا الجبل، ورفعت الأسطح المتطابقة المُتألِّقة التي ما زالت تُدهش ناظريَّ.

فكَّرت أن المصريين القدامى يستطيعون تشييد مثل هذا الشيء، فقط إذا امتلك عُمَّالهم أيًّا من المواد الغريبة التي استخدمها أولئك المُهندسون المعماريون الأكثر قِدمًا. بسبب صغر حجم الشيء، لم يخطر ببالي أنني رُبَّما أنظر إلى نتاج عمل جنس أكثر تقدُّمًا من جنسي. فكرة أن القمر ضمَّ حياة ذكية من قبل كانت لا تزال أكثر هولًا من أن يتقبَّلها عقلي، وقد منعني كبريائي من تقبُّل تلك الحقيقة الحاسمة المُهينة.

بعدها، لاحظت شيئًا جعل القشعريرة تزحف على مؤخِّرة عُنُقي. شيءٌ بسيط وبريء جدًّا إلى درجة أن كثيرين قد لا يلاحظونه على الإطلاق. لقد قلت إن الهضبة مشوَّهة بفعل النيازك، أيضًا كانت مُغطَّاة بطبقة من الغبار الكوني المتراكم بسُمك إنشاتٍ عديدة، الذي يكسو دائمًا سطح أيَّ كوكب عندما لا توجد رياح لبعثرته. لكن كان الغبار وندوب النيازك ينتهيان فجأة عند حواف دائرة عريضة تُحيط بالهرم الصغير، كأن جدارًا غير مرئي يحمي الشيء من ويلات الزمن والقصف البطيء الذي لا يتوقَّف من الفضاء.

استمرَّ شخصٌ ما يصرخ في سمَّاعات رأسي، عندها لاحظت أن «جرانت» كان يحاول الاتِّصال بي لفترة من الوقت. سرت مُترنِّحًا إلى حافة الجرف وأشرت إليه كي ينضم إليَّ، غير واثق من قدرتي على التحدُّث. ثم عدت بعدها إلى تلك الدائرة في الغبار.

التقطتُ شظية من حجرٍ مشطوف وألقيته برفق نحو اللُّغز اللّامع. إذا اختفى الحجر خلف ذلك الحاجزِ الخفي يجب ألا أدهش، لكنه بدا كأنه ارتطم في سلاسة بسطحٍ شفَّاف نصف كروي، وتدحرج بعدها بلُطفٍ إلى الأرض.

عرفت حينها أنني أرمق شيئًا بعيدًا كل البعد عن قدرات أبناء جنسي. هذا الشيء ليس أثرًا.. إنه آلة.. آلة تحمي نفسها بحقول طاقة تتحدَّى الأبدية. تلك الطاقة، أيًّا ما كانت، ما زالت تعمل، ورُبَّما أكون قد اقتربت جدًّا منها بالفعل. فكَّرت في كل الإشعاعات التي اقتنصها الإنسان وروَّضها في القرن الماضي. بقدر علمي، قد

أكون تضرَّرت بشكلٍ لن يصح معه علاج أبدًا، بالضبط كما سيحدث إذا دخلت النطاق المُميت الساكن لكومة نفايات ذرِّية مكشوفة.

أتذكَّر التفاتي إلى «جارنت»، الذي انضمَّ إليَّ وكان يقف حاليًّا في صمت جواري. بدا مشدوهًا بالكامل، لذا لم أزعجه، وسرت إلى حافة الجرف في محاولة لتنشيط ذهني. تحتي مُباشرةً يغفو بحر الشدائد، «مار كريسيوم»، غريبًا وقابضًا بالنسبة إلى معظم البشر، لكنه مألوف ومُطمئن لي. رفعت بصري نحو الأرض الهلالية، التي تغفو في مهدها الأزلي من النجوم، وتساءلت عمَّا كانت سُحُبها تخفي عندما أنهى أولئك البُناة المجهولون عملهم. هل كانت تُخفي غابة رطبة في العصر الكربوني، أم شاطئًا كئيبًا تزحف فوقه البرمائيات الأولى إبَّان غزوها الأوَّل لليابسة، أم أَخْفَت - في عصور أكثر إبكارًا - العُزلة الطويلة التي سبقت ظهور الحياة.

لا تسألني لِما لم أُخمِّن الحقيقة عاجلًا، الحقيقة التي تبدو جليَّة تمامًا الآن. وسط حماسة الاكتشاف الأولى، افترضت دون أدنى شك أن هذا الظهور البلّوري قد شُيِّد بواسطة جنس ما ينتمي إلى ماضي القمر المُندثر، لكن فجأة، وبقوَّة ساحقة، غمرني الإيمان بأن من وضعه جنسٌ غريبٌ عن القمر مثلي تمامًا.

خلال عشرين عامًا، لم نعثر هنا على أثرٍ للحياة باستثناء حفنة من النباتات البائدة. لا حضارة قمرية، مهما كان مصيرها، يُمكن أن تختفي بالكامل وتترك خلفها أثرًا واحدًا.

نظرت من جديد إلى الهرم اللامع، وكيف أنه بدا أكثر بُعدًا وانفصالًا عن أيِّ شيء له علاقة بالقمر. فجأة شعرت بنفسي أرتجُّ بضحكةٍ هيستيريةٍ حمقاء، ناجمة عن فرط الإثارة والإنهاك. لقد تخيَّلت الهرم الصغير يتحدَّث إليَّ ويقول: «معذرة، أنا غريب هنا أيضًا».

استغرق الأمر عشرين عامًا كي نستطيع تحطيم ذلك الدرع الخفي والوصول إلى الآلة القابعة داخل تلك الحوائط البلّورية. ما لم نفهمه قمنا بتدميره في النهاية بالقوة الوحشية الغاشمة للطاقة الذرية. والآن كنت أرمق شظايا الشيء اللَّامع الذي اكتشفته يومًا على قمَّة الجبل.

كانت تقنية بلا معنى لنا. آليات الهرم - إذا وُجدت من الأساس - تنتمي إلى تكنولوچيا تسكن آفاقًا بعيدة تمامًا خارج حدود معارفنا، رُبَّما تنتمي إلى تكنولوچيا تعمل بقوى غير فيزيائية.

أرَّقنا اللغز أكثر بعدما بلغنا جميع كواكب المجموعة الشمسية الأخرى، وتأكَّدنا أن الأرض وحدها مهد الحياة الذكية في كوننا. لا يمكن أن تكون حضارة بائدة من كوكبنا قد بنت هذه الآلة، لأن سُمك طبقة الغبار على الهضبة مكَّنتنا من قياس عمرها. لقد نُصِّب الشيء على ذلك الجبل قبل أن تنبثق الحياة من مُحيطات الأرض.

عندما كان كوكبنا في نصف سِنِّه الحالي، شيءٌ ما أتى من النجوم واجتاح المجموعة الشمسية، وترك هذا الدليل إبَّان مروره، ثم مضى في طريقه. وإلى اللحظة التي دمَّرناها فيها، كانت الآلة لا تزال تخدم الغرض الذي وضعها من أجله صُنَّاعها. وفيما يتعلَّق بهذا الغرض، ها هو تخميني.

يوجد قرابة مِئة ألف مليون نجم يدور حول مُحيط مجرَّة درب التبَّانة، ومنذ زمنٍ طويل تخطَّت أجناسٌ أخرى تقطن عوالم شموس أخرى كل الآفاق التي توصلَّنا إليها. فكِّر في تلك الحضارات الضاربة بجذورها في عمق الزمن. الحضارات التي انبثقت في الفترة التي تلت خفوت وهج الخلق مُباشرةً. إنهم أسيادُ كونٍ يافع جدًّا، حتَّى إن الحياة فيه لم تكن قد تلمَّست طريقها بعد سوى على حِفنة من العوالم. هذا كونٌ غمرته عُزلة لا يُمكن تصوُّرها، عُزلة آلهة تبحث عبر اللانهائية، دون أن تنجح في العثور على أحدٍ لمُشاركته أفكارها.

لا بُدَّ أنهم فتَّشوا عناقيد النجوم كما فتَّشنا نحن الكواكب. في كل مكان توجد عوالم، لكنها فارغة أو مسكونة بأشياءٍ زاحفة لا عقل لها. هكذا كانت أرضنا. كان رماد البراكين العظيمة ما زال يُلوِّث السماء عندما بزغت مركبة أبناء الفجر هؤلاء مُنزلقة من الهاوية المُظلمة وراء بلوتو. لقد عبرت الكواكب الخارجية المُجمَّدة، عالمة أن الحياة لا يمكن أن تلعب أيَّ دور في مصائرها. ثم أتت قُبالة الكواكب الداخلية التي تُدفِّئ نفسها حول نيران الشمس في انتظار استهلال قصصها.

لا بُدَّ أن أولئك الهائمين قد وجَّهوا أنظارهم إلى كوكب الأرض، الذي يطوف بسلام في النطاق الضيِّق بين الجليد والنار، ولا بُدَّ أنهم خمَّنوا أنه المُفضَّل من بين أبناء الشمس. هنا، في المستقبل البعيد، سيظهر ذكاء. لكن لا تزال أمام أولئك نجوم لا تُحصى، ورُبَّما لن يتمكَّنوا من العودة أدراجهم عبر هذا الطريق مرَّة أخرى.

لذا تركوا «الحارس». واحدٌ من ملايين بعثروها عبر الكون، للسهر على جميع العوالم الواعدة بالحياة. كان منارة تبعث إشارات على مر العصور فحواها يقر بأن لا أحد اكتشفها بعد.

رُبَّما تكون قد فهمت الآن لماذا وُضِع الهرم البلِّوري على القمر بدلًا من الأرض. صُنَّاعه لم يكونوا مُهتمِّين بالأجناس التي تُكافح للتخلُّص من همجيتها. حضارتنا ستثير اهتمامهم فقط إذا أثبتنا قدرتنا على البقاء، عن طريق غزو الفضاء والخروج من الأرض.. مهدنا. هذا هو التحدِّي الذي يجب أن تستوفيه كل الأجناس الذكية، عاجلًا أم آجلًا.

إنه تحدٍّ مزدوج، لاعتماده على أمرين مُتضادين: حصد الطَّاقة الذرية وإخضاعها، وعقد الخيار النهائي بين الحياة أو الموت.

بمجرَّد تخطِّينا تلك الأزمة، يصبح العثور على الهرم وسبر أغواره مسألة وقت فحسب. الآن توقَّفت إشاراته، وأصحاب الشأن سيديرون عقولهم نحو الأرض.

رُبَّما يرغبون في مد يد العون إلى حضارتنا الطَفلة. لكن لا بُدَّ أنهم قدماء.. قدماء جدًّا.. والشيوخ دائمًا يغارون بجنون من حديثي السِّن.

لم أعد أستطيع النظر الآن إلى مجرَّة درب التبَّانة دون التساؤل من أيِّ تلك الغيوم المُتراكمة من النجوم سيأتي المبعوثون. إذا كنت ستعذرني في هذا التشبية التَّافه، فنحن أطلقنا إنذار الحريق، ولم يعُد في جعبتنا شيء سوى الانتظار.

ولا أظنُّ أننا سنضطر للانتظار طويلًا.

تمت الترجمة بمعرفة: نادر أسامة([7]).

المؤلف:

آرثر سي كلارك:

تقديرًا لإسهاماته العلمية والأدبية، تم إطلاق اسمه على كويكب، ومدار أقمار صناعية، وجائزة أدبية رفيعة.

وُلد الروائي والعالم البريطاني «آرثر كلارك» عام 1917م، حصل على مؤهله في الرياضيات والفيزياء من كلية (كينجز) بلندن، فتنوعت إصداراته ما بين المراجع المتخصصة والأعمال الأدبية، كما سبق عصره بالتنبؤ - داخل رواياته وقصصه - بعشرات التقنيات العلمية قبل اختراعها بأعوام طويلة.

ترشح لجائزة أوسكار بالإشتراك مع «ستانلي كوبريك» عن سيناريو فيلم «أوديسا الفضاء»، من أهم أعماله: «موعد مع راما»، و«ينابيع الجنة»، و«نهاية الطفولة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«أوديسا الفضاء»:
أيقونة سينمائية، أم فيلم ممل؟

هشام فرج

«عندما شاهدت «أوديسا الفضاء» أوَّل مرة، لم أحبه، وأصابني الإحباط بشدة، بعدها بثلاثة أو أربعة أشهر، كنت مع سيدة ما في كاليفورنيا، ظلت تحدثني عن الفيلم، وكم هو جميل للغاية، فذهبت لمشاهدته مجددًا، وأعجبني بشدة في المرة الثانية، وبعدها بسنتين شاهدته للمرة الثالثة وقلت لنفسي وقتها: «يا إلهي، يا له من فيلم مليء بالأحاسيس»، ولقد كانت مرة من المرات القليلة في حياتي التي أدرك فيها أن «ستانلي كوبريك» كان يسبقني بمراحل».

- المخرج الهوليودي الشهير «وودي آلين» مُتحدِثًا عن (أوديسا الفضاء 2001).

بداية معرفة «كوبريك» بـ«كلارك» لم تكن موفقة تمامًا، حيث جمع بينهما اتصال هاتفي جعل «كوبريك» مستغربًا من هذا الشخص، ووصفه بـ«المجنون»، إلا أنه رأى هذا شيئًا إيجابيًّا، إذ كان متحمسًا للعمل مع شخص مجنون، لديه أفكار غريبة.

عكف «كلارك» على كتابة ست قصص قصيرة، عرضها على «كوبريك»، ليختار منها واحدة؛ فوقع الحظ على قصة «الحارس» التي قرأناها توًا، ليبدأ كلاهما في رحلة طويلة استمرت سنتين، تُوجت بترشحيهما معًا لـ«أوسكار أفضل سيناريو».

منذ إنتاجه عام 1968م حتى الآن، صار الفيلم محل إشادات النقاد والمتخصصين، ليس عند المقارنة بنظرائه ضمن فئة الخيال العلمي، بل يصنفونه كأحد أفضل ما أنتجته السينما عمومًا.

يضيف د. «أحمد خالد توفيق»: «من الناحية العلمية، هذا أدق أفلام الخيال العلمي على الإطلاق. هناك عدة مستشارين علميين اقترحهم «آرثر كلارك» نفسه. وهو الفيلم الوحيد الذي لم يقع في فخ انتقال الصوت عبر الفضاء. كل أفلام الخيال العلمي تسمع فيها صوت الانفجارات بوضوح تام في الفضاء الخارجي، مشاهد انعدام الوزن دقيقة جدًّا فيزيائيًّا، وكذلك تأخر وقت الاتصال بين المركبة وكوكب الأرض، وطريقة الخروج من المركبة في كبسولة. أي عالم فضاء يرى هذا الفيلم يعجز عن إيجاد خطأ واحد إلا فيما ندر».

من النقاط الأخرى المثيرة للاهتمام في هذا الصدد، أن «أوديسا الفضاء» تنبأ باختراعات تكنولوجية قبل ظهورها بسنوات طويلة إلى حيز الوجود؛ ففي أحد المشاهد نجد اثنين من رواد الفضاء يستمعان إلى رسالة مسجلة قادمة من سطح الأرض، وأمامهما أجهزة لوحية، نسميها الآن.. «تابلت».

ربما يذكر البعض تلك القضية الشهيرة التي رفعتها «أبل» ضد «سامسونج»، تتهمهم بانتهاك حقوق ملكية اختراع الحواسب اللوحية «التابلت»، فدافعت الشركة المنافسة – ضمن ما دافعت به - عن نفسها، باستخدام تلك اللقطة من «أوديسا الفضاء»، في محاولة لإقناع المحكمة أن: ملكية فكرة الاختراع تعود في الأصل إلى «كلارك» و«كوبريك»، اللذين سبقا «أبل» إليها.

يتكون سيناريو الفيلم من أربعة أجزاء رئيسية، يتحدث أولها عن نشأة الإنسان ويدعم نظرية أن الإنسان يعود أصله إلى القردة، يتطرق أيضًا إلى بداية الصراع الأزلي بين الخير والشر، القوي والضعيف، حيث نرى مجموعة من القردة تحاول الدفاع عن نفسها وحماية غذائها، من هجوم قطيع آخر.

استيقظت القردة ذات يوم لتجد نصبًا أسود يبرز من سطح الأرض، حاولت الاقتراب منه بحذر شديد. انتهى هذا الجزء من الفيلم بعثور أحد القرود على مجموعة عظام، قام بتجربتها كوسيلة للقتل والدفاع عن النفس، فيما يمكن اعتباره تجسيدًا لمرحلة الارتقاء - بتحفيز من الجسم الأسود المجهول - وبزوغ فجر «الذكاء الإنساني».

اتسم هذا القسم من الأحداث بطابع يشبه الأفلام الوثائقية الصامتة، فخلا من أي جملة حوارية واحدة. لتجيء أول كلمة منطوقة بعد نحو ثلث ساعة، عندما قفزت الكاميرا إلى ملايين السنين، وبالتحديد بداية الألفية الثانية وبداية عصر اكتشاف الفضاء والمركبات الفضائية، حيث قام دكتور «هيوارد فلويد» برحلة إلى سطح القمر للبحث عن جسم غامض أثار الكثير من التساؤلات والمخاوف، لنكتشف في نهاية هذا الجزء أن هذا الجسم الغامض هو ذاته النصب الذي رأته القردة.

عقب هذا الاكتشاف بنحو سنة ونصف السنة، تتجه رحلة أخرى ولكن هذه المرة إلى كوكب المشترى، تضم العالمان «ديفيد باومان» و«فرانك بول»، بصحبة عدد آخر من أفراد الطاقم الذين يرقدون في سُبات مؤقت. يقود الرحلة «هال»، الكمبيوتر الفائق الذي يؤدي كل الوظائف والمهام المعقدة للمركبة.

بعد صراع شرس للبقاء على قيد الحياة، وصلت سفينة الفضاء - أخيرًا - إلى المشترى، ليختتم «كوبريك» فيلمه بتلك النهاية الغامضة، التي لم يستطع أي مخلوق الجزم بأنه فهمها بشكل واضح، حتى تطوع المخرج الشهير بالتفسير مؤخرًا، أي بعد أكثر من نصف قرن من عرض العمل في السينمات، ليقول: «لقد تجنبت فعل ذلك (يقصد شرح الفيلم) منذ ظهور الفيلم للمرة الأولى. الأفكار تبدو حمقاء، لكن إذا ما تم تناولها دراميًّا يستطيع المرء أن يشعر بها. كان من المفترض أن تكون الفكرة هي أن رائد الفضاء قد تم التقاطه بواسطة كيانات أشبه بالإله، مخلوقات من الطاقة والذكاء النقيين بلا أي هيئة أو شكل. وضعوه فيما يمكن وصفه بأنه حديقة حيوان بشرية لدراسته، وتمر حياته بالكامل من تلك النقطة في هذه الغرفة، دون أن يكون لديه أي إحساس بالوقت، كما لو أن الوقت قد مر في الواقع كما يمر في الفيلم.

على أية حال، عندما تنهي هذه المخلوقات عملها، وكما يحدث في العديد من الأساطير من جميع الثقافات في العالم، يتم تحويله إلى نوع ما من الكائنات الفائقة، وتتم إعادته إلى الأرض، وتحويله إلى نوع من «سوبر مان»، وعلينا أن نخمن فقط ما يحدث عندما يعود. إنه نمط الكثير من الأساطير، وهذا ما كنا نحاول تقديمه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأي آخر

ياسين أحمد

لا أدعي أنني متخصص أو ناقد، (الكلام نفسه ينطبق على جميع كاتبي تدوينات الرأي داخل هذا الكتاب) بل أتحدث من مقعد المشاهد العادي، الذي يدردش بفضفضة شخصية انطباعية، تحتمل الخطأ أكثر من الصواب.

بعد هذه المقدمة، يمكنني مصارحتكم الآن - بكل أريحية - أنني خرجت من الفيلم، دون أن أفهم أسبابًا واضحة لكل هالة الانبهار والاحتفاء المحيطة به، فتشككت - في البداية - أن السبب يعود إلى قصور في ذائقتي الشخصية، غير أنني - لاحقًا - اكتشفت أن عددًا من الآراء تشاركني وجهة النظر نفسها، بما فيهم الانطباع الأول لـ«وودي آلين» ذاته.

على سبيل اتقاء شر الإرهاب الفكري، وتفادي الاتهام بـ«الجهل»، سعيت للتحدث في البداية عن إيجابيات للفيلم، أقله - أيضًا - لمنح سطوري بعضًا من التوازن، فوجدتها تتمثل في:

- الموسيقى التصويرية.

- المؤثرات.

- القسم الثالث من الفيلم، الذي دارت أحداثه داخل المركبة «ديسكفري»، حيث يختلف عن بقية «أوديسا الفضاء» في اتسامه بحبكة شيّقة واضحة، لها رأس وذيل. فلن يخطئ المشاهد لو تعامل معه كفيلم مستقل في حد ذاته، بل كان المخرج سيحسن صنعًا لو قام باقتصاصه فعلًا، وطرحه بشكل منفصل كنسخة مخصصة للمشاهدين غير العميقين أمثالي.

بالمناسبة، لم أفهم سببًا واضحًا لتسمية العمل بـ «أوديسا الفضاء»، إلا عندما قرأت تفسيرًا يشير إلى الصراع داخل هذا الجزء من الفيلم، بين البطل البشري، في مقابل الكمبيوتر الفائق «هال» المتصل بكاميرا تومض وتراقب، فيما يشبه إسقاطًا على «السيكلوب».

قرأ أغلبنا عن الملحمة، المنسوبة إلى الشاعر الإغريقي «هوميروس»، فيعرفون ذلك المسخ العملاق ذا العين الواحدة، الذي حاصر «أوديسيوس»، والتهم رجاله - طاقم السفينة - واحدًا تلو الآخر، قبل أن ينجح البطل في التغلب على نقطة تفوق المسخ، وجعل النور - داخل تلك العين الواحدة - ينطفئ إلى الأبد.

عرفت هذا التفسير - منذ فترة قريبة - ضمن تدوينة لـ«عماد العذري» عن الفيلم، مع العلم أن عدم فهمي المسبق للإسقاط، لم يمنعني من الاستمتاع جدًّا بهذا الجزء من الفيلم.

هذا بالتحديد ما أفترضه في (الفن/ الأدب) المثالي: أن يحاط بقشرة خارجية توفر حدًا أدنى من الإمتاع والاستيعاب، تسمح للمتلقي العادي بالاندماج. يليها طبقات

متعددة من العمق، يكتشف النخبة المثقفة - باستمرار - تأويلات متجددة لها.

هذه رؤية «كلارك» نفسها بالمناسبة، بشكل جعلها محل خلاف، نشب بينه بين «كوبريك»، الذي ينتمي إلى مدرسة أخرى (أحترمها بالمناسبة، حتى وإن كنت لا أحبها). تحدث «العذري» باستفاضة عن الموضوع خلال تدوينته المطولة عن «أوديسا الفضاء 2001»، بدأها بعبارة منسوبة إلى المخرج الشهير: «إلى أي مدى سنقدر عبقرية «الجيوكندا» اليوم، لو أن «ليوناردو دافنشي» كتب أسفل قماشها: «هذه السيدة تبتسم بلطف - فقط - لأن أسنانها متعفنة»، أو «لأنها تخفي سرًا لحبيبها»، هذا سينهي تقدير المشاهد، وسيقيده إلى حقيقة تختلف عن شكلها، لا أريد أن يحدث هذا مع (أوديسا الفضاء)».

هذه هي وجهة نظر «كوبريك» - والكلام لا يزال منقولًا عن «العذري» - الذي رأى أن التفسير الواضح قد يقتل عبقرية الفيلم، بينما «كلارك» - بحس الأديب - تحفظ على ترك الأحداث معلقة وسيرالية بهذا الشكل، قد يكون ذلك أحد الأسباب القوية التي جعلت «كلارك» يصيغ رؤيته في أعمال أدبية مستقلة، وترك «كوبريك» يهندس فيلمه كما يشاء.

الغريب أنه بعد أكثر من نصف قرن من صدور «أوديسا الفضاء»، استسلم «كوبريك» لإغراء (قتل عبقرية الفيلم)، وتكرَّم - أخيرًا - بتفسير النهاية، من خلال الفيديو المشار إليه أعلاه.

على النقيض من سيناريو الفيلم، انحاز «كلارك» إلى فكرة (العمق.. لا يعني - بالضرورة - الإملال)، فصاغ النص الأصلي - قصة «الحارس» - بأسلوب مُسلٍ. حاول التخفيف من غربة اختيار سطح القمر مسرحًا للأحداث، عن طريق تقديم تفاصيل حياتية مألوفة، فرأينا رواد الفضاء وهم يطهون، يستمعون إلى الموسيقى، يتبادلون حوارات لا تخلو من الدعابة.

لم تمنحنا الساعتين الكاملتين – مدة الفيلم - أي تلميح عن مصدر النصب الأسود، أو صانعيه. بينما رَسَمَ «كلارك» في قصته - التي لا تتجاوز صفحات قليلة - حبكة شبه متكاملة، تحتوي على «رأس وذيل»، اختتمها بسطور تنوير، وفرت فكرة شبه واضحة حول كنه النصب المجهول، ومصدره، وعواقب تدميره. بل يمكن القول إن التنوير بدأ منذ اختيار المؤلف للعنوان - «الحارس»- في إشارة واضحة إلى الحضارة المبهمة، التي تعود جذورها إلى ملايين السنين، ووضع أصحابها على عاتقهم تلك المهمة الأبوية، بزرع منارات إرشاد للكواكب التي قد تحتضن - يومًا - كائنات تمتلك بذور ذكاء، للأخذ بأيديهم في سلم التطور.

عجزت عن تخمين كل هذه المعلومات في أثناء مشاهدة الفيلم، إلا بعد قراءة النص الأصلي (القصة القصيرة)، إلى جوار الترجمة الموجزة التي قدمها د. أحمد خالد توفيق لرواية «أوديسا الفضاء»، ضمن سلسلة «روايات عالمية للجيب».

أعتبر كل ذلك - في حد ذاته - نقاطًا سلبية ضد الفيلم، لأن العمل الفني - في ظني - يفترض ألا يحتاج إلى مراجع خارجية كي توفر للمشاهد - العادي مثلي - حدًا

أدنى من فرص الفهم.

ربما أعيد مشاهدة «أوديسا الفضاء» بعد عدة سنوات، فأجد نظرة «ياسين الأربعيني» قد تغيرت 180 درجة، وأنبهر بالفيلم - كما حدث مع «وودي آلين» - لكن هذا غالبًا لن يجعلني أنسى أن الفيلم تعالى على ذائقة «نسختي العشرينية».

أمَّا بالعودة إلى الحديث عن المشاهد العادي، فهو لا يقطع تذكرة سينما، كي يلم بأحدث صيحة في تكنولوجيا المؤثرات، فهذه الأشياء يمكن التعرف عليها من خلال أي ندوة، أو معرض علمي. كما أن الموسيقى الساحرة، متاحة طوال الوقت على «ساوند كلاود».

على الجانب الآخر، من منطلق الاستماتة في محاولة الإنصاف، أعاود تذكير نفسي بأن «أوديسا الفضاء» من إنتاج عام 1968م، ولتوضيح دلالة هذه التاريخ، يكفي القول إن العالم كان يحتفي حينها باختراع أول كمبيوتر يعتمد تركيبه على «الترانزوستر»، مما يعطينا فكرة عن حجم الثورة البصرية التي سبق بها «كوبريك» عصره، في ظل الإمكانيات المتاحة حينذاك، فلم أشعر – بوصفي مشاهدًا ينتمي إلى القرن الحادي والعشرين - بفجوة بين هذا العمل السينمائي السيتيناتي، وبين المستوى البصري للأفلام الحالية، التي تنتمي لزمن الجرافيك والـ(CGI).

بالتالي، من الإجحاف ألا ننتبه للدور الذي قامت به «أوديسا الفضاء» في رفع السقف باكرًا، مما يعني أن العديد من الأفلام التي ربما أعجبتنا لاحقًا، تدين صورتها بجزء من الفضل إليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

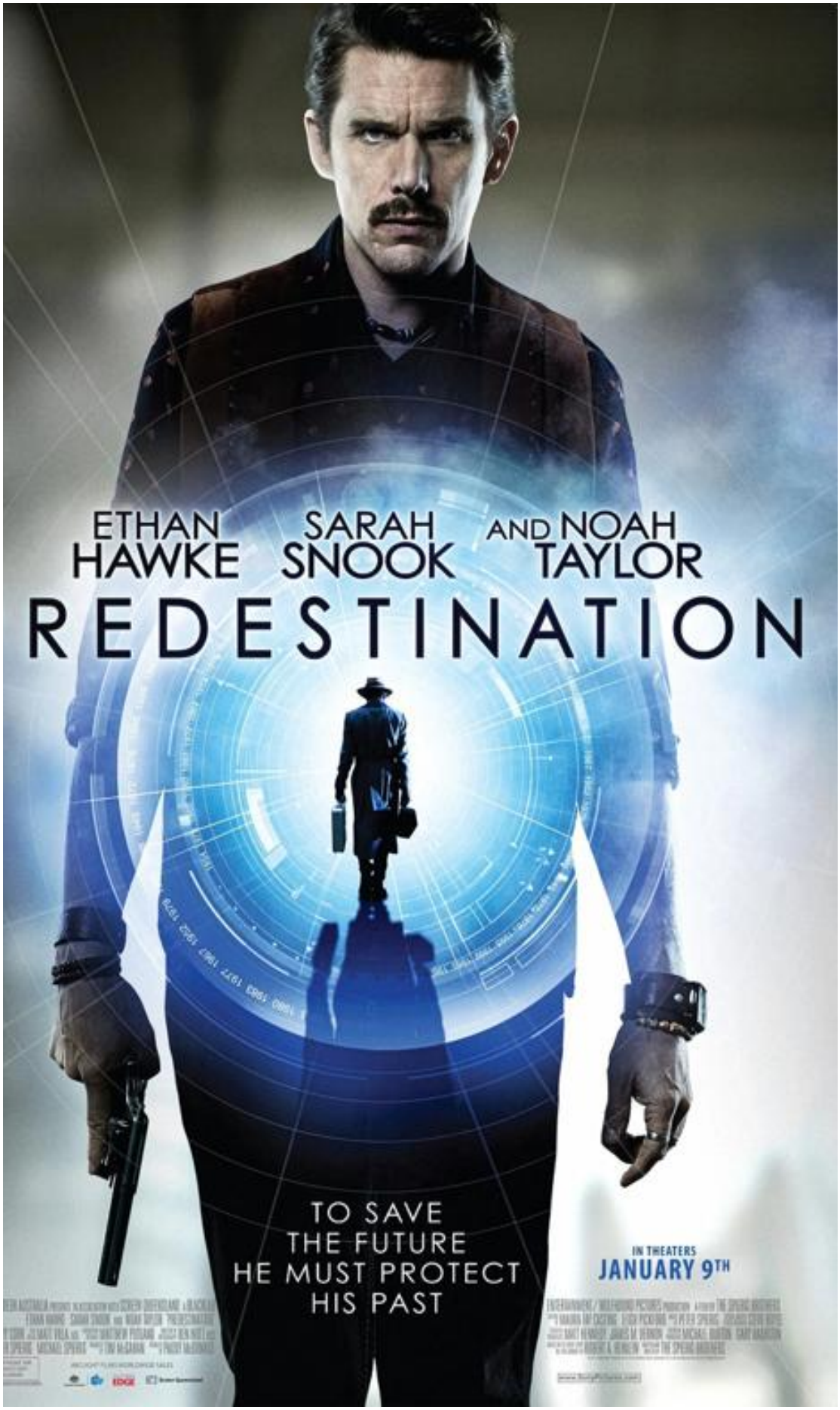
ETHAN HAWKE
SARAH SNOOK
AND NOAH TAYLOR
REDESTINATION
TO SAVE
THE FUTURE
HE MUST PROTECT
HIS PAST
IN THEATERS
JANUARY 9TH

4- جميعكم أيها الموتى الأحياء([8])
تأليف: روبرت أ. هينلاين

ترجمة: محمد الدواخلي

التوقيت 22:17. المنطقة الزمنية الخامسة - 7 نوفمبر 1970م- حانة بوب

كنت ألمِّع بعضًا من كئوس البراندي حين دخل «الأم العزباء» The Unmarried Mother. راجعت الوقت، كانت الساعة 10:17 مساءً بتوقيت المنطقة الخامسة أو التوقيت الشرقي، يوم السابع من نوفمبر عام 1970م، العملاء الزمنيون يجب أن يلاحظوا دومًا التاريخ والوقت، هذا واجب حتمي.

كان «الأم العزباء» رجلًا بين العشرين والخامسة والعشرين من العمر. ليس أطول مني بكثير، ملامحه طفولية وبادية العصبية. لم يعجبني مظهره. لم يعجبني قطُّ، لكنه الفتى الذي أتيت لتجنيده. هو فتاي لذا أعطيته أفضل ابتسامة يمكن لساقٍ في بار مثلي أن يبتسمها.

ربما أكون انتقاديًّا لكنه لم يكن فتى سهلًا، تسميته بـ«الأم العزباء» أتت من رده اللاذع لكل من حاول تجاذب الحديث معه. فيقول: «أنا أم عزباء» وإذا وجد أن هذا الرد ليس كافيًا، يضيف: «مقابل 4 سنتات للكلمة، أكتب قصص الاعترافات». أحيانًا حين يكون متأففًا ينتظر شخصًا ما ليخطئ كي يتصيده. كان له أسلوب فتاك في الشجار يذكرني بالشرطة النسائية. هذا واحد من الأسباب التي جعلته مرشحًا.

بلغ حد الثمالة وعلت وجهه نظرة احتقار للبشرية أكثر من المعتاد. فصببت له كأسًا مضاعفة من شراب «أولد أندر وير» وتركت الزجاجة جواره. جرع الكأس دفعة واحدة وصب غيره لنفسه.

أخذت أنظف البار أمامه وأنا أسأله:

- كيف حالك؟

التفت أصابعه حول الكوب، وبدا وكأنه سيلقيه في وجهي، تحسست الهراوة تحت البار. عليك دومًا أن تتحسب لكل شيء عند التلاعب بالزمن. ولو أن الاحتمالات غير النهائية ستفاجئك مهما كان احتياطك.

لكنني لمحت انفراجة في ملامحه تماثل تلك التي دُربنا على ملاحظتها. فأسرعت أضيف:

- عذرًا، كنت أسأل فقط عن كيف حال العمل. لنغير السؤال إلى: ما رأيك في الطقس؟

رد بتبرم:

- العمل جيد.. أنا أكتبهم.. هم يطبعونهم.. أنا آكل!

صببت لنفسي كأسًا وملت عليه:

- في الحقيقة كتاباتك مبدعة، لقد قرأت بعضها وأدهشتني لمساتك ومراعاتك للمرأة.

كانت مخاطرة يجب أن أتخذها. فهو لم يخبرني قطُّ بالأسماء المستعارة التي ينشر بها، لكنه كان مغتاظًا بما يكفي كي تستفزه فقط الكلمة الأخيرة والتي كررها بحدة:

- مراعاة المرأة! فعلًا! أنا أجيد مراعاة المرأة! يجب عليَّ هذا!

قلت متصنعًا الشك:

- إذًا؟ من شقيقاتك؟

- كلا! أنت لن تصدقني إن أخبرتك!

قلت متلطفًا:

- حسنًا.. حسنًا.. لو اجتمع السقاة والأطباء النفسيون على شيء فهو أنه لا يوجد ما هو أغرب من الحقيقة! لماذا تقول هذا بني؟ لو أنك سمعت ما سمعته من حكايات، حسنًا لنقل إنها ستجعلك كاتبًا ثريًّا مذهلًا!

- أنت لا تعرف معنى كلمة «مذهل».

- أيًّا كان، لا شيء يدهشني، فدائمًا أسمع ما هو أسوأ.

صاح مستهجنًا، وقال:

- هل تريد مراهنتي على بقية الزجاجة؟

وضعت زجاجة جديدة على البار:

- أراهن بزجاجة كاملة.

أشرت لزميلي كي يتولى عني العمل، وقلت له:

- حسنًا.

كنا في مكان منعزل من البار يواجهه مقعد واحد، ويفصله عن باقي البار برطمانات البيض المخلل، وغيرها من البضائع. انشغل بقية الزبائن بمتابعة شجار ما في الطرف الآخر، بينما أخذ أحدهم يحاول تشغيل صندوق الموسيقى. كنا في عزلة كافية حيث نحن.

بدأ الحديث:

- حسنًا، أنا لقيط!

- لا غرابة هنالك!

- أنا أعنيها حرفيًّا! لم يتزوج والداي!

كررت مصرًا:

- لا غرابة، ولا والداي!

- حين...

صمت، ونظر لي أول نظرة دافئة أراها في عينيه:

- هل هذا حقيقي؟

- في الحقيقة، أنا لقيط بنسبة مائة في المائة، لم يتزوج أحد في عائلتي، كلنا لقطاء.

ثم انتبهت للخاتم في إصبعي، فقلت:

- أوه! هذا؟ هو يشبه خاتم الزواج، وأنا أرتديه فقط لإبعاد النساء.

كان تحفة اشتريتها من أحد زملائي العملاء الزمنيين في 1985م، وكان قد حصل عليها من «كريت» ما قبل الميلاد.

- هذا هو ثعبان «أورابور» العالمي، يأكل ذيله دومًا فلا يهلك أو ينتهي، يرمز لمفارقة شهيرة.

بالكاد نظر نحو الخاتم، وهو يقول:

- لو أنك حقًّا لقيط فأنت تعرف كيف هو الأمر، حين كنت فتاة صغيرة...

- أوه! هل ما سمعته صحيح؟!

- من الذي يحكي قصته هنا؟ حين كنت فتاة صغيرة.. أنصت. ألم تسمع عن «كريستينا جونسون» و«روربيرتا كويل»؟

- تبديل الجنس؟ هل تقول إنك...

- لا تقاطعني أو تظهر تعاطفك، وإلا فسأصمت. كنت لقيطة تُركت على باب ميتم في «كليفلاند» عام 1945م. حين كنت فتاة صغيرة كنت أحسد الأطفال الآخرين لأن لهم آباء، وحين عرفت الجنس، وصدقني حين تعيش في ميتم فأنت تتعلمه مبكرًا جدًّا.

- أعرف!

- قطعت على نفسي عهدًا بأنني لو أنجبت فيجب أن يكون لطفلي أب وأم، حافظ هذا على طهارتي وهو ما يعد إنجازًا في تلك الأنحاء. كان عليَّ أن أتعلم القتال للدفاع عن نفسي، حين كبرت أدركت مدى هزلية الأمل في الزواج للأسباب نفسها التي لم يتبناني بسببها أحد: كان وجهي طويلًا كالفرس، وأسناني بارزة، وصدري هزيل وشعري خشن.

- لست أقبح مني حتمًا!

- ومن يبالي لشكل ساقي حانة أو حتى لكاتب! لكن الناس حين تتبنى تبحث عن الفتاة المعتوهة زرقاء العين شقراء الشعر، حين كبرت كان ما يريده الصبيان جسدًا نافرًا بوجه جميل ودلال يستفز ذكوريتهم. لذا حين أدركت أنني بلا فرصة قررت الانضمام لـ«غ. و. ا. ي. ت».

- هه؟

- «غواية». (مؤسسة الإغاثة الوطنية: إدارة اليافعات الترفيهيات). يسمونها اليوم «مراعاتك الفضائية» اختصارًا لـ«مجموعة الرعاية الإضافية والعناية بالأساطيل للترفيه الكوني».

كنت أعرف كلا المصطلحين. كان كلاهما قد بطُل استخدامه وشاع اختصار ثالث للمؤسسة نفسها هو «عاهرك»: «عناية وإعانة وهناء الرواد الكونين». تغيُّر المصطلحات هو أصعب ما تواجهه في المهمات الزمنية. هل تعرف مراكز الخدمة التي تغير فيها الزيت؟

حين كنت في مهمة في فترة «تشرشل»، قالت لي فتاة أن أقابلها في مركز الخدمة المجاورة، ولم يعنِ هذا ما فهمته؛ فمراكز الخدمة وقتها لم يكن بها أسِّرة.

أكمل حديثه:

- وقتها كانت بداية اعترافهم بأنهم لا يمكن أن يرسلوا الرجال للفضاء شهورًا وسنوات دون تخفيف التوتر. هل تذكر عاصفة احتجاج المتزمتين وقتها؟ منحتني فرصة، حيث أخافت المتطوعات. كانوا يبحثون عن فتيات محترمات مع تفضيل العذراوات كي يدربونهن من الصفر بذكاء أعلى من المتوسط ومستقرات نفسيًّا. لكن أغلب المتطوعات كن عاهرات عجائز، أو مختلات سينهرن بعد عشرة أيام خارج الأرض. لذا لم أكن بحاجة لوجه جميل، لو تم قبولي فسيقوِّمون أسناني ويصلحون شعري، ويعلمونني كيف أمشي، وأرقص، وأستمع بهيام للرجال، وكل تلك الأمور، إلى جانب التدريب على الواجبات الأساسية. كانوا حتى سيقومون بعمل عمليات تجميل شاملة لو أنها ستساعد، لا شيء أغلى من فتياننا.

الأجمل من هذا أنهم يتأكدون من عدم وقوع حمل في أثناء فترة خدمتك وفرصة زواج شبه مؤكدة عند نهايتها، تمامًا كما يحدث الآن: تتزوج الفتيات من رواد الفضاء، وكلاهما يتحدث اللغة نفسها.

حين أتممت الثامنة عشر تم تعييني مساعدة أمومة. كانت عائلة تحتاج إلى خادمة رخيصة، لكنني لم أعترض، لأنه لا يمكنني بدء الخدمة إلا بعد بلوغي الحادية والعشرين. قمت بأعباء المنزل وذهبت لمدرسة ليلية متظاهرة بأنني أكمل تعليمي الثانوي في كتابة الاختزال والآلة الكاتبة، لكنني بدلًا من هذا كنت أذهب لحصص الفتنة كي أحسن فرصتي حين ألتحق بالخدمة.

ثم تعرفت وقتها على ذلك الفتى ابن المدينة الكبيرة الذي يحمل معه مئات الدولارات.

تنهد وأكمل:

- هذا البائس كان لديه بالفعل رزم من مئات الدولارات، أراني لإحداها ذات مرة وقال لي أن آخذ ما أشاء.

لكني لم أفعل. أُعجبت به، فقد كان أول رجل أقابله في حياتي يعاملني بلطف دون أن يسعى للتلاعب بي، تركت المدرسة كي أقابله أكثر، كانت أسعد أيام حياتي.

ثم ذات ليلة في الحديقة بدأنا في العبث.

صمت، فسألته:

- وبعدها؟

- وبعدها لا شيء! لم أره ثانية، أوصلني للمنزل وقبَّلني وأخبرني أنه يحبني ثم اختفى للأبد.

علت وجهه نظرة قاسية، وهو يقول:

- لو عثرت عليه يومًا فسأقتله!

أظهرت تعاطفي:

- حسنًا، أتفهم شعورك لكن أن تقتله لأجل غريزة طبيعية، هممم هل كنت تقاومه؟

- هه؟ ما علاقة هذا بالأمر؟

- أعني أنه ربما يستحق تحطيم ذراعيه لهروبه منك. أمَّا القتل...

- بل يستحق ما هو أشنع، انتظر حتى تسمع ما حدث، بطريقة ما نجحت في تجنب شكوك الجميع وقررت أن هذا هو الأفضل. لم أكن واقعة في غرامه، وربما على الأرجح لن أُغرم بأي انسان، وكنت متلهفة للالتحاق بخدمة «غواية»، ما حدث لم يدمر فرصتي؛ فالبكارة ليست شرطًا أساسيًّا، وهكذا هونت الأمر على نفسي. ولكن أدركت تغير الحال حين ضاقت ملابسي، وعرفت!

- حمل؟!

- أنزلني للحضيض! الأوغاد الذين كنت أخدمهم، لم يبالوا طالما كنت قادرة على العمل، ثم طردوني، لم يقبل الميتم عودتي وعشت في ساحة مستشفى خيرية محاطة بمثيلاتي من ذوات البطون المنتفخة وحاملي قساطر البول إلى أن أتى المخاض. ذات ليلة وجدت نفسي على سرير العمليات، وممرضة تقول لي: «اهدئي. خذي نفسًا عميقًا». استيقظت على السرير مخدرة من أسفل صدري حتى قدمي والجرَّاح يسألني مرحًا «كيف تشعرين؟».

- كالمومياء!

- هذا طبيعي فأنت ملفوفة مثلها، ومتخمة بالمهدئات كي نحافظ على تخديرك، ستكونين بخير لكن القيصرية ليست كعلاج ظفر مكسور!

- قيصرية! دكتور، هل فقدت الطفل؟

- كلا! الطفل بخير.

- أوه! ولد أم بنت؟

- بنت صغيرة سليمة، خمسة أرطال وثلاثة أونصات.

أحسست بالراحة، كان هذا على الأقل أمرًا طيبًا. فكرت في الذهاب بعيدًا، ووضع لقب سيدة قبل اسمي، وإخبار طفلي بأن بابا ميت، وأنها لن تنشأ في ملجأ.

لكن الجرَّاح واصل حديثه مرتبكًا:

- أخبريني يا..... همم - تجنَّب ذكر اسمي - ألم تشعري قطُّ أن ترتيب أعضاء جسدك غريب!

- هه؟ بالطبع لا! إلام تلمح؟

تلعثم قليلًا، وهو يقول:

- سأعطيك هذه الجرعة، ثم مهدئًا يساعدك على النوم بعد التوتر الذي سيصيبك!

قلت مصرة:

- لماذا؟

- هل سمعت عن الجرَّاح الأسكتلندي الذي كان فتاة حتى الخامسة والثلاثين؟ ثم قامت عملية جراحية بتغييره طبيًا وقانونيًّا لرجل؟ ثم تزوج؟ وعاش طبيعيًّا.

- ما علاقة هذا بي؟

- علاقته هو أنكِ أيضًا رجل!

حاولت النهوض صارخة:

- ماذا؟

- اهدئي! حين شققنا بطنك كان الوضع فوضويًّا، حتى إنني استعنت برئيس قسم الجراحة كي ينجدك، بينما أقوم بإخراج الطفل. ثم بعد التشاور مطولًا عن أفضل حل قضينا ساعات معًا في الجراحة كي ننقذ ما يمكن إنقاذه. كنت تحملين جهازين تناسليين كاملين، كلاهما غير ناضج لكن الجهاز النسائي كان بالكاد قادرًا على حمل الطفل، لكنه تدمر بحيث لم يعد نافعًا لك. لذا لم يكن أمامنا سوى إتمام الجراحة وإزالته، بحيث ينمو جهازك الذكري لتصبحي رجلًا.

وربت عليَّ مكملًا:

- لا تقلقي! ما زلت شابًا، وعظامك في طور النمو، وستستقر غددك وتحولك لرجل سليم!

صرخت فزعًا:

- وماذا عن طفلتي؟

- حسنًا لن تستطيع إرضاعها! لا يحمل جسدك لبنًا كافيًا لقطة صغيرة! لو كنت مكانك فلن أراها، وسأعرضها للتبني.

- كلا!

هز كتفه:

- هذا قرارك، فأنت أمه. أو والده! لكن لا تشغلي رأسك بهذا الآن علينا أن نركز على تعافيك أولًا!

ذهبت في اليوم التالي لرؤية الطفلة ورأيتها كل يوم، لم أكن قد رأيت قبلًا طفلًا حديث الولادة، ولم يكن لدي فكرة عن مدى قبحهم! بدت ابنتي كأنها قرد برتقالي. تحددت مشاعري بأنني يجب أن أفعل الصواب لأجلها، لكن بعد أربعة أسابيع لم يعنِ هذا القرار شيئًا!

- هه؟

- لقد سُرقت!

- سُرقت؟

كاد الأم العزباء أن تحطم الزجاجة التي تراهنا عليها:

- اختُطفت. سُرقت من حضَّانة المستشفى!

ثم زفر بقوة، وهو يقول:

- كيف سيكون حالك حين يؤخذ منك آخر شيء ترغب في الحياة لأجله!

وافقته وأنا أصب له كأسًا أخرى:

- في أسوأ حال! لم تظهر أية أدلة؟

- لا شيء أفادت الشرطة، شخص ما أتى ليراها زاعمًا أنه خالها، وحين أدارت الممرضة ظهرها، غادر وهو يحملها.

- ماذا عن وصفه؟

تجهَّم:

- مجرد رجل بوجه رجولي مثلي ومثلك، أظن أنه أبوها، الممرضة تجزم أنه أكبر سنًا لكني أظن أنه تنكَّر، من غيره سيهتم بطفلي؟ ربما تتجرأ سيدة عاقر بفعل هذا، لكن من سمع عن رجل يفعلها؟

- وماذا حدث لك بعدها؟

- قضيت في هذا المكان الكئيب أحد عشر شهرًا أجريت فيها ثلاث عمليات. ظهرت لحيتي بعد أربعة شهور، وقبل أن أخرج كنت بحاجة إلى الحلاقة يوميًّا. لم يعد هناك شك في أنني رجل.

ابتسم بامتعاض مكملًا:

- بدأتُ أحدق في ملابس الممرضات. قلت: حسنًا! يبدو أنك نجوت من الأمر وانتهى المطاف للأفضل! ها أنت أصبحت رجلًا طبيعيًّا تكسب المال دون مشكلات حقيقية، ولنعترف أن حياة الأنثى ليست سهلة!

حدَّق بي:

- أتزعم أنك تعرف حقًّا الأمر!

- ولم؟

- هل سمعت مصطلح «حطام امرأة»؟

- لم يعد أحد يستخدم هذا الوصف الآن!

- كنت امرأة مكسورة تمامًا! هذا الحقير حطمني بالفعل، ثم لم أعد امرأة أصلًا، ولم أكن أعرف كيف أكون رجلًا!

- أظن أن الأمر استغرق بعض الوقت لاعتياده!

- ليس لديك فكرة! لم أكن أعرف كيف ألبس، كنت دومًا أدخل إلى الحمام الخطأ. تعلمت هذه الأشياء في المستشفى لكن كيف أعيش بعدها؟ كيف أحصل على وظيفة؟ تبًّا، لم أكن أعرف قيادة السيارة، لم أكن أجيد أي حرفة ولست مهيئًا للعمل اليدوي، جسدي مليء بالندوب ورقيق أكثر من اللازم. كرهته لأنه دمر فرصتي في «غواية»، لكنني لم أدرك مدى الدمار الذي ألحقه بي إلا حين حاولت الالتحاق بإدارة الفضاء بدلًا منها. نظرة واحدة لبطني وتم اعتباري غير لائق طبيًّا للخدمة العسكرية، طبيب الفحص قضى الوقت معي من قبيل الفضول فحسب فقد قرأ عن حالتي.

لذا غيرت اسمي وسافرت إلى نيويورك، عملت في البداية في مطعم للوجبات السريعة، ثم أجرت آلة كاتبة، وعملت ككاتب اختزال. يا للمهزلة! خلال أربعة أشهر لم أكتب سوى أربعة خطابات ونصف واحد! كان النص مكتوبًا لـ«من قصص الحياة الحقيقية»، ولم يكن يساوي الورق الذي كُتب عليه، لكن هذا الأحمق استطاع بيعه! ومن هنا بدأت الفكرة. اشتريت كميات من مجلات الاعترافات وبدأت في دراستها.

أكمل ساخرًا:

- الآن تعرف لماذا مراعاتي للمرأة وللأمهات العزباوات في قصصي تبدو أصلية، على الرغم من أن القصة الحقيقية الوحيدة لم أنشرها قط. هل يكفي هذا للفوز برهاننا؟

دفعت الزجاجة تجاهه. كنت مستاءً، لكن يجب إنجاز المهمة، لذا قلت:

- قل لي يا بني، هل ما زلت تريد الإمساك بذاك الوضيع؟

التمعت عيناه ببريق وحشي، فقلت:

- لن تقتله، ستمسك به فقط، حسنًا؟

أطلق ضحكة وحشية:

- جربني.

- على رسلك، أعرف عن الأمر أكثر مما تتخيل، يمكنني مساعدتك فأنا أعرف أين هو.

مال عليَّ متجاوزًا البار، وهو يقول:

- أين هو؟

قلت بهدوء:

- اترك قميصي يا بني، قبل أن تجد نفسك مُلقى في الزقاق، ولن نخبر الشرطة سوى بأنك فقدت وعيك.

أريته هرواتي، فتركني، وقال:

- أعتذر، لكن أخبرني أين هو؟

ثم نظر إليَّ، وأضاف:

- وكيف عرفت كل هذا؟!

- ستعرف كل شيء في حينه.. هناك سجلات.. سجلات المستشفى وسجلات الملجأ والسجلات الطبية.. المشرفة على ملجئك كانت السيدة «فيثراج».. صحيح؟ وخلفتها السيدة «جرونشتاين».. صحيح؟ اسمك كفتاة كان «جين».. صحيح؟ وأنت لم تخبرني بأي من هذا.. صحيح؟

جعلته مرتبكًا، وإلى حد ما خائفًا:

- ماذا تريد مني؟ هل تحاول توريطي في المشكلات؟

- بالطبع لا، بل أريد راحة قلبك، سأضع هذا الشخص بين يديك ويمكنك أن تفعل به ما تشاء وأضمن لك النجاة بفعلتك، لكنني أظن أنك لن تقتله، ستكون أحمق إن فعلت، وأنت لست بالأحمق، ليس بالكامل.

تجاهل حديثي، وقال:

- كَفّ عن المماطلة، أين هو؟

صببت له كأسًا صغيرة، كان سكران، لكن غضبه يحتاج له.

- ليس بهذه السرعة، أنا أقدم لك خدمة، في مقابل أن تقدم لي خدمة.

- آها، ما هي؟!

- أنت لا تحب عملك، فماذا لو حصلت على آخر بمرتب أكبر. وظيفة ثابتة وحساب نفقات مفتوح، وأنت رئيس نفسك، والكثير من التسلية والمغامرة؟

حدَّق بي، وقال:

- سأقول مثل الأغنية «أخرج هذه الرنة اللعينة من سقفي.. اغرب عني بوب فلا وجود لمثل هذه الوظيفة.. لا أبالي من أنت يا فاستو العجوز.. أخرج هذه الرنة من على سطحي.. فلا يوجد ما يسمى بسانتا كلوز»([9]).

- لا بأس، لنرتب الأمر هكذا: سأسلمه لك، ستسوي حسابك معه، ثم ستجرب الوظيفة التي أعرضها عليك، لو لم تكن وعودي صادقة، فلا أستطيع منعك من الرحيل.

كان مترددًا، لكن الكأس الأخيرة أدت مفعولها، فقال بلسان ثقيل:

- متى تستطيع أن تسلمه لي؟

- لو أنك وافقت على الصفقة فسأفعل الآن!

أومأت لمساعدي كي ينتبه، وسجلت الوقت الساعة 23.00، وحين انحنيت لأعبر من الباب أسفل البار، بدأ الصندوق الموسيقي يذيع أغنية «أنا جد لنفسي (1947)» I am my Own Grandpa. كنت قد أمرت رجل الصيانة بأن يملأه بالأغاني الكلاسيكية والفولكلور لأنني لا أطيق أغاني السبعينيات لكنني لم أعرف أن هذا الشريط به. صحت بالعامل:

- أغلق هذه الأغنية وأعد للعميل نقوده!

ثم قلت:

- سأذهب للمخزن. سأعود خلال دقيقة.

ذهبت إلى هناك و«الأم العزباء» يتبعني، كان بنهاية الممر باب حديدي لا يملك أحد مفتاحه سوى مدير الفترة الصباحية وأنا، يؤدي لغرفة في نهايتها غرفة داخلية لا يملك مفتاحها سواي، وهناك دخلنا.

نظر بعيون متثاقلة على جدران الغرفة التي بلا نوافذ، وسأل:

- أين هو؟

- حالًا.

فتحت الحقيبة التي كانت الشيء الوحيد الموجود بالغرفة، كانت حقيبة محول المجال الترابطي (USFF) من النوع 1992م، الموديل الثاني. قطعة رائعة من جزء واحد تزن ثلاثة وعشرين كيلو جرامًا وهي مشحونة بالكامل، ومن السهل تمريرها على أنها حقيبة عمل، كنت قد جهزتها في الصباح، وكل ما احتاج إليه أن أرفع شبكة الحماية المعدنية التي تحجم المجال.

سألني:

- ما هذه؟

رددت، وأنا أضع الشبكة فوقنا:

- آلة زمن!

كان الأمر بحاجة إلى تكنيك محدد، أن تلقي الشبكة بعناية، بحيث إن الشخص الذي معك حين يتراجع، سيطأ بقدمه فوق الشبكة المعدنية، وحينها تقوم بإغلاقها عليكما وحدكما. إن لم تفعل هذا، فربما تترك خلفكما حذاء أو جزءًا من قدمه أو تأخذ معكما قطعة من الأرضية، باستثناء هذا فالأمر لا يحتاج إلى أي مهارة. بعض العملاء يلجئون لخداع الشخص كي يدخل الشبكة، أمَّا أنا فأخبره بالحقيقة وأستغل مفاجئته لظبط وضعيته وتشغيل الآلة، وهذا ما فعلته.

1031- أربعة - الثالث من أبريل 1963م- مليفلاند - أوهايو أبيكس بلدينج

كرر:

- أزل هذا الشيء اللعين عني!

- آسف.

أزلت الشبكة وأعدتها للحقيبة، وقلت:

- أنت من قال إنك تريد العثور عليه!

- لكن.. أنت قلت إن هذه آلة زمن؟

أشرت إلى النافذة:

- هل يبدو هذا مثل شهر نوفمبر؟ وهل هذه هي نيويورك؟

بينما كان يحدق مذهولًا ويتأمل الطقس والمباني بالخارج، عدت للحقيبة، واستخرجت منها رزمة من مئات الدولارات، وراجعت أن طباعتها وأرقامها المتسلسلة مناسبة لعام 1963م.

مكتب المهمات الزمنية، لا يهتم بحجم نفقاتك فهي لا تكلف شيئًا، لكنهم يكرهون حدوث مفارقات زمنية بغير ضرورة، لو ارتكبت الكثير من الأخطاء فستحكم المحكمة العسكرية بنفيك مدة عام في حقبة زمنية بشعة، ربما حتى 1974م لتعاني مع الحصص التموينية وأعمال السخرة، لم أكن لأرتكب مثل هذه الأخطاء، كانت النقود مناسبة.

التفت لي، وقال:

- ماذا حدث؟

- إنه هنا، اذهب ونَلْ منه، خذ هذا المال للمصاريف.

أعطيته المال، وأضفت:

- فلتسوي حسابك معه، وسأعود لأخذك!

رزمة من أوراق المائة دولار، لها تأثير مخدر على شخص غير معتاد عليها، كان يقلب فيها بذهول، بينما أجره خارج القاعة، وأغلق الباب خلفه. القفزة التالية كانت سهلة، قفزة زمنية قصيرة.

7100 - المنطقة الرابعة – 10 مارس 1964م - كليفلاند أبيكس بيلدنج

كانت هناك ورقة أسفل الباب تنبهني أن مدة الإيجار ستنتهي بعد أسبوع، غير هذا كانت الغرفة تمامًا مثلما تركتها منذ لحظات، بالخارج أشجار عالية يعلوها الثلج. لم يؤخرني سوى إخراج المال والملابس المناسبة للحقبة، معطف وقبعة وجاكت كنت تركتهم هنا حين أجرت الغرفة. أجرت عربة وذهبت للمستشفى، لم يستغرق الأمر أكثر من ثلث ساعة كي أخدع الممرضة وآخذ الطفلة، وأرجع إلى «أبيكس بيلدنج». القفزة التالية ستكون أصعب لأن شركة «أبيكس بيلدنج» لم تكن قد بنت مبناها في 1945م، لكني كنت قد جهزت الحسابات بالفعل.

0100 - المنطقة الرابعة – 20 سبتمبر 1945م- كليفلاند فندق سكاي فيو

وصلت للفندق خارج المدينة مع الحقيبة والطفلة، كنت قد حجزت مسبقًا فيه باسم «جريجوري جوناثان» من بلدة «وارن» بـ«أوهايو»، لذا وصلنا الغرفة وستائرها مغلقة ونوافذها محكمة وبابها مغلق بالمفتاح، وأرضيتها عارية كي لا تعوق استقبال الآلة حين الوصول، يمكنك أن تصاب بكدمات عنيفة من مقعد موضوع في المكان الخطأ، ليس من المقعد نفسه ولكن من الخلل العنيف في المجال.

لا مشكلات هنالك، كانت «جان» نائمة، حملتها برفق، ووضعتها في صندوق بقالة على مقعد السيارة التي كنت جهزتها في قفزة سابقة، قدت إلى الميتم وتركتها على السلم، وقدت إلى مركز الخدمة (الخاص بالسيارات هذه المرة)، واتصلت هناك بالميتم ثم عدت فورًا لأراقبهم وهم يأخذونها، ثم أكملت حتى اقتربت من الفندق، فتركت السيارة، وسرت إليه، ثم قفزت بالزمن إلى «أبيكس بيلدنج» 1963م.

2200 - المنطقة الرابعة - 24 أبريل 1963م - كليفلاند أبيكس بيلدنج

وصلت في الموعد المناسب، دقة القفزة الزمنية تعتمد على حسابك الدقيق للمدة بين القفزتين، باستثناء طبعًا حين ترجع لنقطة الصفر، لو أن تقديري سليم فإن

«جان» تكتشف الآن في الحديقة، وتلك الليلة الربيعية المعتدلة، أنها ليست فتاة بالبراءة الذي تتصورها في نفسها.

أخذت تاكسي لمنزل أولئك الأوغاد، وجعلت السائق ينتظرني على الناصية، بينما اختفيت وسط الظلال.

رأيتهما أخيرًا في الطريق متعانقين، حملها فوق مصطبة المنزل، وأخذ يقبلها قبلة وداع طويلة، أطول مما ظننت، ثم حين تركته والتفت هو مغادرًا، اقتربت منه، وأمسكت بذراعه:

- هذا هو كل شيء يا بني، عدت من أجلك!

شهق:

- أنت!

- نعم أنا، الآن أنت تعرف من كان هو، ولو فكرت بعمق أكبر، فستعرف من هي الطفلة، ومن أنا!

لم يُجب. كان في حالة صدمة، إنها لصدمة حقيقية أن تعرف أنك عاجز عن مقاومة إغوائك لنفسك، أخذته لمبنى «أبيكس بيلدنج» وقفزنا زمنيًّا مرة أخرى.

2300 - المنطقة الثامنة – 12 أغسطس 1985م - قاعدة سب روكيز

أيقظت الرقيب المناوب، وأظهرت له هويتي، وأخبرته أن يقوم بتهدئة رفيقي بحبة سعادة، وأن يبدأ عملية التجنيد في الصباح، كان الرقيب مستاءً لكن الرتبة الأعلى يجب طاعتها أيًّا كان زمنها. نفَّذ أوامري وهو يفكر حتمًا أننا قد نلتقي ثانية، وأنا مجرد رقيب بينما هو العقيد، يحدث هذا كثيرًا في مؤسستنا.

سألني:

- ما اسمه؟

كتبت الاسم، فرفع حاجبه، وقال:

- مثلـ.. ايه! هممم!

- فقط قم بعملك أيها الرقيب!

ثم التفت لمرافقي، قائلًا:

- بني، لقد انتهت جميع مشكلاتك، أنت على وشك أن تستلم أفضل وظيفة يحلم بها إنسان، وستبلو بلاءً حسنًا، أعرف هذا.

وافقني الرقيب:

- بالطبع ستفعل، انظر إليَّ! ولدت عام 1917م، وما زلت هنا شابًا يتمتع بالحياة.

عدت إلى غرفة القفزات الزمنية كان كل شيء معدًّا لنقطة الصفر.

2301 - المنطقة الخامسة - 7 نوفمبر 1970م - نيويورك حانة بوب

خرجت من المخزن أحمل بعض الزجاجات كي أفسر ذهابي، كان مساعدي ما زال يتجادل مع الزبون الذي شغل أغنية «أنا جد لنفسي»، لكني كنت مرهقًا جدًّا فقلت له:

- دعه يسمعها ثم أزلها من الصندوق.

كان أمرًا صعبًا، لكن لا بدَّ من فعله. التجنيد أصبح شديد الصعوبة بعد كارثة 1972م. هل يوجد مصدر للتجنيد أفضل من العثور على أشخاص غارقين في المشكلات، وأن تعرض عليهم وظيفة رائعة بمرتب مذهل ومغامرات مشوقة، حتى لو كانت خطيرة. الكل يعرف الآن لماذا أصبحت حرب الإبادة في 1963م بائدة. القنبلة التي كانت ستفجر نيو يورك تعطلت، وعشرات الأمور لم تسر حسب الخطة.

كل هذا بفضل رجال مثلي.

لكن خطأ 1972م لم يكن بأيدينا، ولم يكن قابلًا للإصلاح، فليست هناك مفارقة زمنية كي نقوم بحلها، الشيء إما أن يكون كذلك وإما لا. الآن وللأبد، آمين!

لكن لن يحدث هذا مرة أخرى. هناك أوامر بأن يُعطى 1992م الأولوية على أي عام آخر.

أغلقت مبكرًا بخمس دقائق، وتركت خطابًا مع الإيراد للمدير النهاري بقبولي لعرضه بشراء الحانة، وأن عليه مقابلة محامٍ لإنجاز الأمر، بينما سأذهب أنا في إجازة طويلة.

ربما تقوم الإدارة باستعادة أموالها أو تركها، لكنهم يحبون أن نترك الأمور مرتبة دون أسئلة، عدت للغرفة الداخلية وقفزت زمنيًّا إلى 1993م.

2200 - المنطقة السابعة - 12 يناير 1993م - قاعدة سب روكيز أنيكس

مقر إدارة العمليات الزمنية: شؤون العاملين

راجعت مهماتي مع المحقق المشرف، وعدت لحجرتي ناويًا النوم مدة أسبوع، كنت أحمل معي الزجاجة التي تراهنا عليها (ففي النهاية أنا من ربحها)، شربتُ القليل قبل أن أكتب التقرير.

كان طعمها شنيعًا، جعلني أتساءل، لم كنت أحب مثل هذا الخمر، لكنه كان أفضل من لا شيء، لا أحب أن أبدو كإنسان متزن بارد، أنا أفكر أكثر من اللازم لكني أيضًا لا أشرب حتى الثمالة، البعض يغرق أحزانه في الخمر وأنا أغرقها في البشر. أنهيت تقريري.

أربعونٍ مجندًا جميعهم مجازون للفحص النفسي، يشملونني أيضًا، وأنا أعرف أنني سأقبل، فأنا هنا، أليس كذلك؟ ثم كتبت طلبًا ليتم تعييني لمهام جديدة، فقد

اكتفيت من التجنيد، وضعت كليهما في البريد وذهبت للسرير، وعيناي تتأملان قوانين الزمن المعلقة فوقي.

- لا تفعل بالأمس ما يجب فعله غدًا.

- لو نجحت أخيرًا لا تحاول ثانية.

- ترقيع زمني أنقذ حياة 9 بلايين.

- المفارقة يمكن علاجها.

- إنه أبكر مما تتصور.

- الأسلاف مجرد بشر.

- حتى العظماء يخطئون.

لم يعودوا يلهمونني كما كنت أفعل حينما كنت أجند ثلاثين مرشحًا، منذ سنوات قافزًا متجهًا لك، خلعت ملابسي ونظرت في المرآة لبطني، القيصرية تترك ندبة كبيرة، لكن شعري كثيف الآن، حتى إنها لا تظهر إلا حين أدقق النظر.

ثم نظرت إلى الخاتم في إصبعي، الثعبان الذي يأكل ذيله دائمًا وأبدًا، أنا أعرف من أين أتيت، لكن من أين أتيتم أيها الموتى الأحياء؟

أحسست بالصداع، لكني لم آخذ قطُّ حبَّة الصداع، فعلتها مرة، فذهبتم جميعًا.

لذا ذهبت للسرير وصفرت للنور كي يغلق.

أنتم لستم موجودين حقًّا، لا يوجد سواي، أنا «جين» هنا في الظلام.

أفتقدكم بشدة.

تمت الترجمة بمعرفة محمد الدواخلي([10])

المؤلف:

روبرت أ. هينلاين:

كاتب وروائي أمريكي، اشتهر - مع «إيزاك أزيموف» و«آرثر كلارك» - بلقب «الثلاثي الكبير The Big Three» في مجال الخيال العلمي. فازت أربع من رواياته بجائزة «هوجو». يُنسب إليه إدخال مفردات لم تكن موجودة قبلًا إلى اللغة الإنجليزية، كما أطلق اسمه على إحدى فوهات كوكب «المريخ».

من أهم إصداراته: «غريبة في أرض غريبة»، و«جنود المركبة الفضائية»، و«القمر عشيقة قاسية». تخرج في الأكاديمية البحرية الأمريكية في «أنابوليس» بولاية «ماريلاند» عام 1929م. نشر خلال حياته نحو 59 قصة قصيرة و32 رواية، استمد منها عدة أفلام وملسلسلات تلفازية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(محتومPredestination)
أفعى لا تكف عن التهام ذيلها

محمد الدواخلي

- سنة الإنتاج: 2014م.

- بطولة: إيثان هوك.

- إخراج: الأخوان سبيريج.

- تقييم العمل 7.5/10.

- (المحتوم Predestination): فيلم أسترالي، مأخوذ عن قصة للكاتب الأمريكي «روبرت أنسون هاينلاين»، كُتبت عام 1954م، قبل إنتاج الفيلم بستين عامًا.

- ملخص الأحداث:

«تحتوي السطور الآتية على الكثير من الحرق، فلا ينصح بقراءة المقال إلا بعد مشاهدة الفيلم أولًا».

«بوب» عميل زمني، يحاول بلا جدوى إيقاف سلسلة من عمليات التفجير التي تحدث في الستينيات والسبعينيات في نيويورك. يحترق وجهه ويخضع لعملية تجميل تغير من هيئته وصوته، ويتم إرساله للمهمة الأخيرة: تجنيد نفسه!

«جين» فتاة يتيمة بائسة تتعرف على شاب هو أول شخص يعاملها بلطف، تتخلى عن طموحها للالتحاق ببرنامج الفضاء كي ترافقه، لكن بعد ليلة واحدة معه يختفي لتجد نفسها حاملًا وقد خسرت كل شيء، حين تلد يكتشف الأطباء أنها «خُنثى»، وأن جهازها التناسلي الأنثوي قد تدمر نتيجة الولادة، وعدم نضج رحمها. فيستأصلون أعضاءها الأنثوية لتتحول إلى رجل كامل، بينما يتم اختطاف ابنتها. تتحول «جين» إلى «جون» (الأم العزباء)، الذي يكتب قصصًا لبريد القراء على أنها قصص من الواقع من اعتراف النساء البائسات.

يتقابل «جون» و«بوب» الذي يستمع إلى قصته، ثم يعده بالانتقام من الشاب النذل الذي دمر حياة «جين»، يأخذه عبر الزمن لليلة التي قابلت فيها «جين» هذا الشاب، لا يجده «جون» ولكنه يقابل «جين» بدلًا منه، ويفاجأ بأنها أجمل مما يتذكر نفسه بكثير.

يحاول «بوب» القيام بمهمة غير مصرحة لمواجهة المفجر المجهول، لكنه يفشل ثانية، وينقذ حياة نفسه من الماضي في أثناء احتراقها.

في النهاية، يتضح أن الشاب العابث هو «جون» نفسه، وأنه رحل ليستلم عمله كعميل زمني كي ينضج، ويتحول إلى «بوب»، وأن «بوب» هو من خطف ابنتهما وسلمها للميتم عام 1945م، كي تكبر وتصبح هي «جين»، فيصبح

«جين» و«جان» و«بوب» شخصًا واحدًا، ولد وتزوج وأحب نفسه في دائرة زمنية مغلقة.

يتقاعد «بوب» في الزمن نفسه للمفجر، كي يحاول التخلص منه، ليكتشف أن آلته الزمنية ما زالت تعمل، فيستخدمها لمواجهة المفجر، ليفاجئ بأنه هو نفسه بعدما كبر، وأصبح يقتل الناس كي ينقذ أعدادًا أكبر في عمليات إرهابية قام بها آخرون، فيقوم بقتل المفجر (نفسه الأكبر)، كي يبدأ دورة زمنية جديدة تنتهي بجنونه، والتحول للمفجر الذي يطارده.

نادرًا ما نجد الإنتاج السينمائي يلتزم بالعمل الأدبي، مما يثير حنق القراء، خاصةً لو كان عملًا أدبيًّا رفيع المستوى، فما بالنا بواحدة من أوائل الأعمال التي تناولت مفهوم المفارقة الزمنية، وكيف أن فكرة السفر عبر الزمن قد تخلق دوائر مفرغة تستمر في الحدوث للأبد؟

لكن الفيلم هنا التزم بالنص الأدبي القصير لدرجة كبيرة، حتى إن فقرات مطولة من الحوار مأخوذة من القصة، مع إضافة دائرة زمنية موازية للعمل الأصلي تتحدث عن النضج والخرف والموت، بدلًا من الطموح والحب والميلاد الذين شكلوا الدائرة الأولى.

والسؤال هنا: هل كان هذا مفيدًا للعمل؟

على الرغم من براعة الإخراج، وقدرات «إيثان هوك» التمثيلية المتميزة، لكن افتقار العمل للأحداث وقلة المفاجئات بها - رغم غرابتها - تجعل إيقاعه بطيئًا، فما يناسب قصة قصيرة، قد لا يناسب فيلمًا طويلًا، التزم العمل كذلك بالفترة الزمنية نفسها التي تخيلتها القصة، فقد كانت تتحدث عن الستينيات والسبعينيات أنها مستقبل بعيد يشهد طفرة في استعمار الفضاء؛ فلم يحاول السيناريو تغيير الحقبة الزمنية لتناسب مشاهد الألفية الثانية.

بنى السيناريو الدائرة الثانية الخاصة بالدمار والموت من إشارات محدودة لمهام البطل، لكنه فشل في استغلالها لإظهار حجم الألم الذي لخصه راوي القصة بجملته الأخيرة «كلكم موتى أحياء»، واستبدلها بأثر جانبي للسفر عبر الزمن، كأن حجم الآلام والصدمات التي مر بها بطل العمل غير كافٍ!

تركز القصة على شخصية «جين»، الفتاة الوحيدة المتألمة قليلة الحظ، فهي الأصل وما شخصيات «جان» و«بوب» إلا قشور خارجية أحدثتها مفاجئات الحياة وجعلتها حبيسة مهام ووظائف ورغبات نتيجة تحولاتها العنيفة، لكن في النهاية تظل «جين» هي الأصل. هي الروح المقتولة في قلب «بوب» بينما بقية شخصياتها ليست إلا موتى أحياء.

لكن الفيلم برغم التزامه بخط الأحداث؛ فإنه يخلق الدائرة الزمنية الثانية التي تصنع مفارقة النضج والموت، جعل العمل يتمحور حول «بوب» الرجل الذي يكره نفسه، والذي انفصل عن بداياته كأنثى وأم، وساهم في تدمير بدايته وقتل نهايته. على الرغم من جاذبية الفكرة، لكنها في ظني أتت غير موفقة لبعدها عن

روح العمل الأصلي، واقترابه من آلام «جين»، الأنثى المدفونة داخل «جون» و«بوب». خصوصًا مع التلميح لدور مكتب العملاء الزمنيين في التلاعب والتخطيط للأمر، بما يفسد فكرة أخرى تحدثت عنها القصة وهي «قوة إغواء الإنسان لنفسه»، فـ«جون» أتى لحماية «جين» والانتقام لها، لكنه عجز عن كسر الدائرة المغلقة حين اكتشف حقيقته، ووقع في فتنة حبه لنفسه وشخصيته القديمة المتفتحة، حتى سمح لها بأن تغويه لنقطة الصفر المدمرة.

في قصة قصيرة يمكن للكاتب أن يكتفي بالإشارة للفكرة في جملة واحدة، لكن كان يجب تناولها بعمق أكبر في الفيلم بدلًا من التشويش عليها، باعتبار أن مصائر «جين» و«جون» و«بوب» هي أحجار قام برصها السيد «روبرستون» في لعبة زمنية ضخمة.

من حيث التمثيل فقد تألق «إيثان هوك» في دور «بوب»، بينما لم يتح الدور الكثير لـ«سارة سنوك» كي تظهر موهبتها، على الرغم من قدراتها المقنعة في تجسيدها لشخصية «جون» (الأم العزباء).

إخراج الأخوين «سبيرج» كان متميزًا. حاولا معالجة بطء إيقاع السيناريو وقلة أحداثه بتناولهما لمراحل الشخصية في مشاهد سريعة بالكاميرا، لكنه لم يكن كافيًا. من ناحية أخرى، كانت هناك مشكلة في النص الأصلي الذي التزم به الفيلم، أن القصة الأصلية أفسدت مفاجئة حقيقة الدائرة الزمنية من البداية، وأن «جين» و«بوب» والفتى العابث شخصية واحدة، حاول السيناريو تعويضها بإخفاء حقيقة المفجر لكن تركيز الإخراج على مشاهد المفجر الأولى بأسلوب التناول والتصوير نفشه الذي استخدم في كشف حقيقة «جون»/الفتى العابث، سهَّل على المشاهد القفز لاستنتاج شخصية المفجر.

ختامًا، قد لا يكون عملًا باهرًا بمقايس أفلام الخيال العلمي الهوليوودية، لكن «المحتوم» عمل يحاول معالجة قصة قوية وشخصيات معقدة، وهو ما يضعه في مرتبة مهمة على الرغم من كثرة السلبيات، التي في النهاية جعلت القصة برغم التزام العمل بها في مكانة أعلى بكثير من الفيلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

TOTAL
RECALL

5- يمكننا تذكُّر الأمر كله لك([11])

تأليف: فيليب ك. ديك

ترجمة: نرمين رشدي

استيقظ وهو يفكر في المريخ.

كان يفكر في الوديان ويتساءل كيف هو إحساس التجول بينها. كان الحلم لا يزال مسيطرًا عليه أكثر وأكثر حتى بعد أن استعاد كامل وعيه واستيقظ من النوم. الحلم والهاجس والرغبة الملحة. كان يستطيع الشعور بالفكرة الملحة المسيطرة عليه بشدة تحيط به من العالم الآخر، هذا الأمر الذي لم يطلع عليه سوى عملاء الحكومة وربما بعض كبار المسؤولين. ولكنْ موظف صغير مثله، هذا ليس بالأمر المحتمل بتاتًا.

- هل ستستيقظ، أم لا؟!

هتفت به زوجته «كريستين» بصوت ناعس يحمل آثار النوم بطريقتها الشرسة المعتادة.

- إذا استيقظت قم بضغط زر القهوة الساخنة على الموقد اللعين.

- حسنًا.

رد عليها «دوجلاس كوايل» وهو يتوجه حافي القدمين من الحمام إلى المطبخ، هناك قام مطيعًا بالضغط على الزر الخاص بالقهوة الساخنة كما أمرته زوجه وجلس إلى مائدة المطبخ وأخرج علبة نشوق معدنية صغيرة صفراء اللون، منقوش عليها الجودة الفاخرة (دين سويفت) وقام بالاستنشاق بقوة. برغم اهتياج أنفه من تأثير خليط بوناش المميز وشعور الحرقة في سقف حلقه؛ فإنه استمر في الاستنشاق. طرد النشوق كل آثار النوم منه إلا أن أحلامه وأمنياته الليلية ظلت مسيطرة على عقله الواعي ومستحوذة عليه.

- سأذهب.

حدَّث نفسه، قائلًا:

- سأذهب حتمًا لأرى المريخ قبل الموت.

كان الأمر ببساطة مستحيل التنفيذ، وهو مدرك تمامًا لهذا حتى في أثناء هذيان أحلامه خلال النوم فهو يعلم استحالة الأمر. لكن ضوء الشمس وصوت زوجته الرتيب وهي تصفف خصلات شعرها أمام المرآة في غرفة النوم كل ذلك تعاون على تذكيره بمن يكون هو.

- ما أنت إلا موظف روتيني بائس ضئيل الراتب.

هكذا ذكَّر نفسه بمرارة.

تذكره «كريستين» دومًا بهذا الأمر مرة في اليوم على الأقل، وهو لا يلومها على ذلك، فما على الزوجة الطبيعية إلا أن تنزل بزوجها إلى أرض الواقع.

«النزول إلى الأرض!».

أثارت تلك العبارة ضحكه، كانت الاستعارة في هذه العبارة تلائم الفكرة بشكل حرفي.

- ما الذي يضحكك؟

قاطعت زوجه أفكاره بطريقتها الجافة الخشنة وهي تدخل المطبخ بسلاسة مرتدية بلوزة طويلة قرنفلية اللون.

- حلم، أراهن على أنه حلم، أنت دائمًا مليء بالأحلام.

- نعم.

رد عليها وهو ينظر إلى الخارج عبر نافذة المطبخ ويتأمل حركة المرور في الطريق المزدحم بالسيارات والناس الذاهبين إلى أعمالهم بنشاط، في وقت قصير سيلحق بهم كما يفعل دومًا.

قالت بازدراء:

- أراهن على أن الأمر يتعلق بامرأة ما.

- لا. الإله، إله الحرب لديه فوهات عميقة رائعة بها كل أنواع الحياة النباتية التي تنمو داخل أعماقها.

- اسمع.

انحنت «كريستين» بجوارهِ قائلة بجدية، وهي تحاول إزالة القسوة من صوتها، وتبدي نوعًا من الاهتمام:

- محيطنا أكثر عمقًا من ذلك بكثير، كما أن الزمن به لانهائي وأكثر جمالًا، أنت تعرف هذا، بل إن الجميع يعرف هذا، استأجر بدلة للغوص العميق لكلينا وخذ أسبوعًا إجازة من عملك، ويمكننا الذهاب والحياة بالأسفل هناك، في واحد من المنتجعات المائية المدارية المتاحة طوال العام، كما يمكننا أيضًا...

توقفت، ثم صرخت به:

- أنت لا تستمع إليَّ، عليك أن تسمعني، يوجد هنا أمر أفضل بكثير من هذا الهاجس المسيطر عليك بشأن المريخ، وأنت حتى لا تسمعني.

ارتفع صوتها بحدة:

- يا إله السماواااات، أنت ملعون يا «دوج»، ما الذي يحدث لك؟!

- أنا ذاهب للعمل.

قام متناسيًا طعام الإفطار:

- هذا ما يحدث لي.

قالت وهي تنظر له:

- أمرك يزداد سوءًا، تصبح أكثر تعلقًا بهذا الأمر كل يوم، إلى أين سيقودنا هذا؟!

- إلى المريخ.

رد عليها وهو يفتح الدولاب وينتقي قميصًا نظيفًا ليرتديه للعمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد نزوله من التاكسي توجه «دوجلاس كوايل» ببطء إلى مدخل البناية الحديثة اللامعة عبر الشارع ثلاثي المسارات، والمزدحم بشدة، وتوقف أمامها، يقرأ بحرص اللوحة المضاءة بألوان النيون المتغيرة.. «ريكول المتحدة».

قام في الماضي بفحص تلك اللوحة مرارًا ولكنه لم يجرؤ قطُّ على الاقتراب منها مثل اليوم. أمَّا اليوم فالوضع مختلف تمامًا، وعليه أن يقوم بهذا الأمر إن آجلًا أو عاجلًا.

هل هنا يوجد الجواب؟ على الوهم، مهما كانت قوته وسيطرته عليه واقتناعه به، أن يبقى برغم كل هذا مجرد وهم. ولكن هذا من المنظور العام للأشياء أما بالنسبة إلى الرغبة الشخصية فإن الأمر يختلف تمامًا. على أية حال، وبرغم هذه الأفكار التي تدور في رأسه، فهو على موعد حتمي في خلال خمس دقائق.

أخذ نفسًا عميقًا من هواءِ مدينة «شيكاغو» نصف الملوث بالضباب الدخاني. دلف «دوجلاس» من خلال مدخل البناية اللامع متباين الألوان ومشى حتى مكتب الاستقبال حيث تجلس خلفه موظفة شقراء، أنيقة، متناسقة القد، ترتدي بلوزة مكشوفة الصدر. حيته بلطف قائلة:

- صباح الخير مستر «كوايل».

- نعم، أنا أتيت إلى هنا بخصوص دورة «ريكال»، وأظن أنك على علم بالأمر.

- ليست «ريكال» ولكن «ريكول».

صوّبت الموظفة نطقه مكورة شفتيها، بينما قامت في اللحظة نفسها بالتقاط سماعة التليفون الموضوع بجوار مرفقها الناعم، وتحدثت عبره:

- مستر «دوجلاس كوايل» هنا يا مستر «ماكلين»، هل يمكنه الحضور الآن، أم لا يزال الوقت مبكرًا؟

-خمنـــ.....ماااذ.....الذيـــــ.... الأمــــ

سمع صوت غمغمة الطرف الآخر عبر المسماع.

- تفضل يا مستر «كوايل»، يمكنك الدخول فالسيد «ماكلين» ينتظر قدومك.

هتفت من خلفه وهو يدلف داخلًا:

- غرفة «د» على جهة اليمين من الممر.

وجد الغرفة الصحيحة بعد لحظات، ظن فيها أنه ضل طريقه بين غرف الممر المعدودة. في الداخل كان يجلس إلى مكتب من خشب الجوز الحقيقي، رجل ذو مظهر جذاب في منتصف العمر، يرتدي بدلة رمادية اللون أنيقة مصنوعة من جلد الضفادع المريخية، وهذا الزي وحده أكد له أنه حتمًا قد حضر إلى المكان والشخص المناسبين.

- تفضل بالجلوس مستر «دوجلاس».

لوَّح له مستر «ماكلين» بيد ممتلئة ناحية كرسي في مقابل مكتبه تمامًا.

- إذا فأنت تريد التأكد من أنك قد ذهبت إلى المريخ؟ جيد جدًّا.

جلس «كوايل» شاعرًا بالتوتر، وقال:

- أنا لست متأكدًا تمامًا بأن الأمر يساوي التكلفة العالية، وأنا لا أملك شيئًا في الواقع، كما أن التكلفة مثلها مثل الذهاب صعبة جدًّا.

- لا.

رد عليه «ماكلين» بشكل قاطع، قائلًا:

- يمكنك الحصول على الأدلة الملموسة على قيامك بالرحلة، كل الأدلة التي تريدها، ها هي سأريك.

عبث بيده داخل أحد أدراج مكتبه ليخرج كعب تذكرة، ثم مد يده داخل حافظة أوراق ليلتقط منها قطعة مربعة من الورق المقوى المزخرفة بنقوش ما.

- هذه تثبت ذهابك وعودتك، بطاقات بريدية.

وضع أمام عيني «كوايل» بعناية على سطح المكتب أربع بطاقات بريدية مختومة ذات صور ملونة ثلاثية الأبعاد.

- أفلام، التقطها بنفسك للمناظر المحلية على المريخ بكاميرا متحركة مستأجرة.

وضع أمام «كوايل» تلك الصور أيضًا.

- بجانب أسماء من قابلتهم من أفراد. مائتان من البطاقات البريدية التذكارية ستصل من المريخ خلال الشهر المقبل، جواز سفر، شهادات مدون بها جميع الصور التي التقطتها هناك، والمزيد.

قال مكملًا حديثه، وهو ينظر لـ«كويل»:

- ستعرف وتتأكد حتمًا من ذهابك إلى هناك. لن تتذكرنا، لن تتذكرني أو حتى تتذكر وجودك هنا، لكنها ستكون رحلة حقيقية موجودة في عقلك، نضمن لك هذا. أسبوعان كاملان من استرجاع تلك الذكرى بكل تفاصيلها متناهية الدقة، تذكر

هذا، وتذكر دومًا أيضًا أنه في حالة لو اختلط عليك الأمر، وشككت بقيامك بهذه الرحلة الكاملة إلى المريخ، يمكنك العودة هنا واسترجاع كامل أموالك.

قاطعه «كوايل»، قائلًا:

- ولكنني لم أذهب، لم أذهب من قبل، حتى ولو قدمت لي كل الأدلة التي تثبت أني فعلت.

أخذ نفسًا عميقًا، وأكمل:

-أنا لم أكن مطلقًا عميلًا سريًّا بين الكواكب مع «إنتربلان».

بدا له هذا الأمر مستحيلًا تمامًا، برغم ما سمعه من الناس.. أن تتم عملية غرس ذاكرة واقعية إضافية مدمجة وتعمل بنجاح.

رد عيه مستر «كلاين»:

- كما أوضحت في خطابك الموجه لنا يا مستر «كوايل»، بأنه ليس لديك أي فرصة، كما أنه لا توجد لديك الإمكانيات المادية للوصول إلى المريخ، والأهم من ذلك فأنت لا يمكن أن تكون مؤهلًا للعمل كعميل سري في «إنتربلان»، أو أي جهة أخرى.. وتلكما هما الوسيلتان اللتان يمكنك من خلالهما تحقيق... احم.. حلم حياتك كما عبرت عنه، أليس كذلك يا مستر «كوايل»؟ لا يمكنك فعليًّا القيام بذلك، ولكن كان بإمكانك أن تكون قد فعلت هذا الأمر، يمكننا تقصي الأمر لك، وأتعابنا معقولة ودون رسوم إضافية.

قال جملته الأخيرة وابتسم مشجعًا.

سأله «كوايل»:

- هل تلك الذاكرة الواقعية الإضافية لها تلك القوة المقنعة؟

رد عليه «ماكلين» فورًا، وبثقة:

- أكثر مما تتصور يا سيدي. إذا كنت قد ذهبت إلى المريخ كعميل سري بين الكواكب ستكون قد نسيت جزءًا كبيرًا من الأمر، ولكن في تحليل «نظام استعادة الذكريات الأصلية»، وهو عبارة عن استعادة حقيقية لذكريات الأحداث الكبرى في حياة الأفراد، من المعروف أن الناس يفقدون جزءًا كبيرًا من تفاصيل ذكريات حياتهم بسهولة وللأبد، ولكنَّ جزءًا من عرضنا المقدم لك يشمل زراعة عميقة للذكريات، تضمن عدم نسيان أو إسقاط شيء من الذكريات. الحزمة التي سنقوم بغرسها في أثناء فقدانك التام للوعي هي من إبداع خبراء مدربين قضوا سنوات طويلة على المريخ، وفي كل حالة نتأكد من الحفاظ على أدق الأمور حتى التفاصيل متناهية الدقة. وما تطلبه أنت هو أمر في غاية السهولة. كان الأمر ليختلف لو كنت تنشد كوكب بلوتو أو تريد أن تصبح إمبراطور «التحالف الداخلي للكواكب»، حيث كنا سنلقى صعوبات جمة، وبالتالي تكلفة أعلى.

مد «كوايل» يده في معطفه، لاستخراج حافظة نقوده، قائلًا:

- حسنًا، بما أن هذا هو حلم حياتي، وكما أعرف أنني لن أحققه أبدًا؛ فعلي أن أسدد ثمنه.

رد «ماكلين» محتدًا:

- لا تفكر في الأمر بتلك الطريقة، أنت لن تقبل ثاني أفضل الحلول، وهي الذاكرة الفعلية، بما فيها من توهان وغموض ونسيان وإسقاطات وسهوات، ناهيك عن تحريفات الذاكرة، تلك هي ثاني أفضل الاختيارات.

أخذ «ماكلين» منه الأموال، وضغط زرًا على مكتبه قائلًا:

- حسنًا يا مستر «كوايل».

انفتح باب المكتب ودلف منه بسرعة رجلان قويا البنيان.

- أنت في طريقك إلى المريخ كعميل سري.

قال له ذلك، وهو ينهض من خلف مكتبه، ليصافح يد «كوايل» المتوترة المتعرقة.

- أو من الأفضل أن قول إنك كنت في طريقك إلى المريخ هذا العصر. في الرابعة والنصف ستكون قد وصلت إلى كوكب الأرض، ستوصلك سيارة أجرة إلى شقتك وكما وصفت لك لن تتذكر تلك المقابلة أو حضورك هنا مطلقًا، في الحقيقة لن تتذكر حتى سماعك عن مؤسستنا.

جف حلق «كوايل» من التوتر، بينما يتبع المساعدان خارج المكتب، ما سيحدث بعد تلك المقابلة - بالتأكيد - يعتمد عليهم.

«هل سأصدق حقًّا أنني قد ذهبت إلى المريخ، وأنني حققت أمنية حياتي».

فكَّر في ذلك وهو يتبع الرجلين سريعًا. كان لديه شعور خفي بأن شيئًا ما خطأ سيحدث، ولكن ما هذا الشيء؟ لم يكن متأكدًا، عليه الانتظار لمعرفة هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رنَّ جهاز الاتصال الداخلي الذي يصله بمنطقة العمل داخل الشركة على مكتب «ماكلين»، وانطلق منه صوت يقول:

- تم وضع السيد «كوايل» تحت التخدير بنجاح، هل تود الحضور للإشراف على العملية بنفسك، أم هل نبدأ في العمل فورًا؟

- لا، عليكم متابعة عملكم يا «لوي»، فالأمر روتيني، ولا أظن أنكم ستواجهون أي متاعب.

«إن برمجة ذاكرة صناعية تحوي على ذكرى لرحلة إلى كوكب آخر مع إضافة - أو عدم إضافة - أمر ثانوي مثل أن يكون الشخص عميلًا سريًّا بين الكواكب، ويظهر على قائمة جدول أعمال المؤسسة بانتظام رتيب. في خلال شهر واحد علينا أن نقوم بعمل 20 عملية زرع ذاكرة. أصبح السفر بشكل اصطناعي بين الكواكبِ هو مصدر رزقنا».

هكذا فكّر «ماكلين» في الأمر بسخرية، بينما يتحدث إلى «لوي» على جهاز الاتصال الداخلي.

- كما تود سيد «ماكين».

خرج صوت «لوي» من جهاز التواصل ثم انقطع الاتصال.

ذهب «ماكلين» إلى غرفة حفظ المواد الملحقة بمكتبه وبحث عن ثلاثة ملفات:

- رحلة إلى المريخ، وملف النموذج (62)، وملف جاسوس سري بين الكواكب.

بعد أن وجد الملفات المطلوبة عاد إلى مكتبه، وجلس مستريحًا. أخرج من الملفات المواد الخاصة التي سيتم وضعها في شقة «كوايل»، بينما يقوم المساعدون في المختبر بعملهم في زراعة وتثبيت الذاكرة المزيفة داخل عقله.

أخرج جهازًا طويلًا معقدًا يشبه الذراع، وهو يفكر في هذا من أكبر المواد التي تستهلك أكثر المال، ثم أخرج جهاز إرسال في حجم حبة الدواء، يمكن ابتلاعها في حالة القبض على العميل، ثم كتاب الأكواد السرية الذي يشبه الأصلي بشكل مدهش؛ فنماذج الشركة كانت دقيقة جدًّا، ومستندة - إذا سمحت الظروف - إلى المواد الحقيقية من الجيش الأمريكي. قام أيضًا بإخراج عدة نثريات صغيرة ليس لها قيمة جوهرية، ولكن يمكن أن تنسج ضمنيًّا داخل الذاكرة الصناعية وتضيف تفاصيل أكثر إلى رحلة «كوايل» الوهمية مثل: نصف عملة فضية قديمة من فئة الخمسين سنت، عدة اقتباسات من مواعظ «جون دون» تحتوي على بعض الأخطاء اللغوية ومكتوبة على مناديل ورقية رقيقة شفافة. أمشاط كبريت من بار على كوكب المريخ، ملعقة من الصلب المقاوم للصدأ محفور عليها «ملكية دوم مارس الوطنية كيبوزم»، سلك معدني ملفوف يستخدم....

انطلق فجأة صوت أزيز جهاز التواصل الداخلي ومنه خرج صوت «لوي» مقاطعًا عمل «ماكين»:

- سيد «ماكين»، آسف على الإزعاج ولكن حدث خطأ. استجاب «كوايل» لمفعول الـ«ناركيدرين» بفاعلية تامة، وفقد وعيه فورًا، كان يستجيب بنجاح للأمر، لكن.. آه.. أرى أنه من الأفضل الحضور بنفسك إلى هنا.

- سأحضر إليكم.

ترك «ماكلين» مكتبه شاعرًا بالقلق، وتوجه فورًا لمنطقة العمل، وبعد لحظات قليلة كان يدخل الحجرة، حيث وجد «دوجلاس كوايل» مستلقيًا على سرير طبي معقم، ويتنفس ببطء وانتظام، عيناه مغلقتان بالفعل، لكنه بدا واعيًا لوجود المساعدين، ودخول «ماكلين».

مثل تلك المشكلات التافهة التي تعيق سلاسة العمل، تصيب «ماكلين» بالإحباط، فبادر قائلًا بملل:

- إذا كانت لا توجد مساحة كافية لإدخال نماذج الذاكرة المزيفة في عقله، فيمكنكم بكل بساطة حذف أسبوعين من ذاكرة عمله، فهو يعمل موظفًا حكوميًّا في مكتب هجرة الساحل الغربي، ولذا فمن المؤكد أنه يأخذ - أو أخذ بالفعل – إجازة مدة أسبوعين في العام الماضي، وهكذا تُحل المشكلة.

- لكن المشكلة هنا تتعلق بأمر مختلف تمامًا.

رد «لوي» وهو ينحني على السرير، حيث يستلقي «كويل»، وقال موجهًا الحديث له:

- أخبر السيد «ماكلين» بما أخبرتنا به.

ثم وجه الكلام لـ«ماكلين»:

- استمع جيدًا لما سيقوله.

فتح «كوايل» عينيه الرمادية الخضراء، وصوبهما بتكاسل، ولكن بحدة ناحية «ماكلين».

كانت عيناه قاسيتين وباردتين، تلمعان لمعة بلا حياة، وكأنهما حجر كريم شبه حقيقي. لم يسترح «ماكلين» مما يراه في تلك العينين، وشعر بالاضطراب يتصاعد داخله، وهو يسمع صوت «دوجلاس» البارد يقول له بصرامة وبرود:

- والآن ما الذي تريده مني بعد أن أفسدت مهمتي، وكشفت أمري، اخرجوا من هنا قبل أن اقضي عليكم جميعًا، خاصة أنت.

قالها وهو يشير إلى «ماكلين».

- أنت المسؤول عن هذه العملية المضادة.

سأله «لوي»:

- ما المدة التي قضيتها على المريخ؟

رد «كوايل» بغضب مقاومًا تأثير المخدر:

- شهر واحد.

- وما الغرض من وجودك هناك؟

لوى «كوايل» شفتيه امتعاضًا، ونظر إليه، ولم يُجب، لكنه أخيرًا نطق تلك الكلمات وهي تكاد تقطر عدائية من بين شفتيه:

- عميل لـ«إنتربلان»، كما قلت مسبقًا، ألم تسجلوا كل شيء على أشرطة التسجيل المرئي؟ قم بعرض شريط الفيديو اللعين على مديرك واتركني لحالي.

أغلق عينيه موقفًا لمعانهما القاسي، حينها هدأ قلق «ماكلين» قليلًا.

قال «لوي» لرئيسه بهدوء:

- هذا رجل صعب المراس جدًّا يا سيدي.

رد «ماكلين»:

-لن يظل كذلك بعد أن نرتب أمر فقدانه لتسلسل ذكرياته مرة أخرى، حينها سيعود وديعًا كما كان.

ثم وجَّه كلامه إلى «كوايل»:

- ألهذا السبب كنت تريد الذهاب إلى المريخ بتلك اللهفة؟

- لم أرغب قطُّ في الذهاب إلى المريخ، بل تم اختياري لتلك المهمة، وهكذا أُسقط في يدي، وأصبحت ملزمًا بالسفر إلى هناك. نعم، أعترف بأن الأمر أثار فضولي في البداية مثل أي فرد.

فتح عينيه ثانية وفحص ثلاثتهم، بالأخص «ماكلين»، وأكمل مذهولًا:

- يا له من عقار قوي هذا الذي حقنتوني به! لا بدَّ أنه مصل الحقيقة. لقد جعلني أتذكر أشياء لم تكن في ذاكرتي بالمرة، يا ترى ماذا حل بـ«كرستين»؟

قال مخاطبًا نفسه:

- أيمكن أن تكون متورطة بالأمر وما هي إلا جهة تواصل مع «إنتربلان» لمراقبتي، والتأكد من أنني لن أستعيد ذاكرتي ثانية. لا عجب إذًا من أنها كانت تسخر بشدة من رغبتي في الذهاب إلى المريخ.

ابتسم بضعف – ابتسامة من فَهِم الحقيقة – ولكنها اختفت من وجهه سريعًا.

قال «ماكلين»:

- أرجو منك أن تصدقني يا سيد «كوايل» بأننا قد تفاجئنا بما تقول تمامًا، وأن ما حدث هو أمر عرضي تصادف أن وقع في أثناء قيامنا بعملنا.

- أصدقك.

بدا «كوايل» مرهقًا وفي حالة إعياء شديد من أثر العقار المخدر، الذي بدأ في التأثير على وعيه بشكل أعمق وأعمق:

- أين قلت إنني كنت.. المريخ؟! من الصعب تذكر الأمر.. أعرف أنني كنت أرغب بشدة في رؤيته كما يريد الجميع ولكن أنا - خفت صوته - أنا مجرد موظف صغير بلا قيمة.

دخل في ثبات عميق.

قال «لوي» لمرؤوسه وهو يعتدل واقفًا:

- أمر عجيب، كان يريد ذاكرة مزيفة تُزرع داخل عقله لتتطابق مع رحلة قام بها بالفعل، وسبب زائف كان هو الحقيقة بعينها. هو يقول الحقيقة، لا يمكنه الكذب وهو تحت تأثير مفعول الـ«ناركيدرين». الرحلة واضحة وحية جدًّا في عقله،

أنعشها المخدر، ولكن من الواضح أنه لا يتذكر من أمرها شيئًا في أثناء وعيه. من المحتمل جدًّا أنه قد تم محو ذلك الجزء من ذاكرته الواعية – من المؤكد – في أحد المختبرات العسكرية الحكومية، فأصبح كل ما يعرفه عن أمر السفر إلى المريخ عبارة عن ذكرى باهتة مشوشة عن كونه عميلًا سريًّا بين الكواكب، وأن المريخ له مدلول ما مميز لديه. لم يستطيعوا إزالة هذا الجزء، لأنها لم تكن ذكرى واضحة فعلية ولكن مجرد رغبة خفية، ربما كانت تلك الرغبة نفسها هي ما دفعه للتطوع لهذه المهمة من البداية.

قال المساعد الآخر «كيلر» لـ«ماكلين»:

- ما الذي علينا فعله الآن؟ هل نضع نموذج ذاكرة مزيفة فوق الحقيقية؟ لا يمكن معرفة ما سينتج عن هذا، ربما يتذكر جزءًا من الرحلة الأصلية، ولكن قد يُحدث له التشويش الناتج عن الخلط بين الذاكرتين اضطرابًا عقليًّا، وذلك لأن عليه الاحتفاظ بوضعين متناقضين داخل عقله في الوقت نفسه. هو ذهب فعليًّا إلى المريخ ولكنه لم يذهب قطُّ إلى المريخ، وذلك لأنه يعمل عميلًا حقيقيًّا لدى «إنتربلان»، ولكن هذا مستحيل وأمر زائف. أظن أنه من أفضل الحلول إفاقته دون زرع أي ذاكرة زائفة في عقله وتركه يغادر من هنا. أرى أن هذا عين الصواب.

- أوافق هذا الرأي.

رد عليه «ماكلين» وقد جاءته فكرة، فسأل «لوي»:

- هل يمكن معرفة ما سيتذكره عندما يفوق من أثر المخدر؟

- من المستحيل معرفة ذلك. من المحتمل أن تكون لديه بعض الذكريات الباهتة المشتتة عن الرحلة الحقيقية الآن وسيشعر – على الأرجح – بشكل غامض بشكوك عميقة عن صدق الأمر. سيُحيل الأمر حينها إلى أن برمجتنا قد أخفقت في جزء ما. وبالطبع سيتذكر حضوره إلى هنا، ولكن إذا أردت يمكننا مسح ذلك من ذاكرته.

رد «ماكلين» فورًا:

- لا من الأفضل عدم العبث مع هذا الرجل، لا يوجد ما يمكننا العبث به أكثر في عقله. لقد كنا حمقى، أو منحوسين اليوم بالقدر الكافي الذي يجعلنا نكشف هوية عميل حقيقي بين الكواكب، كان لديه غطاء ممتاز لإخفاء أمره تمامًا، والذي جعله هو شخصيًّا حتى اليوم لا يعرف حقيقة نفسه، بأنه كان جاسوسًا سريًّا أو بالأحرى لا يزال. لذا فكلما أسرعنا في غسل أيدينا من أمر هذا الرجل الذي يدعو نفسه «دوجلاس كوايل»، كان الأمر أفضل لنا جميعًا.

سأل «لوي»:

- هل ستقوم بزرع الحزم الثلاثية الخاصة بالمهمة في شقته.

- لا.

رد عليه «ماكلين» بشكل قاطع:

- بل سأقوم بإعادة نصف المصاريف التي دفعها لنا.

- النصف! ولِم النصف؟

- تبدو كتسوية مناسبة للأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما أقلته سيارة الأجرة إلى شقته في الحي السكني الموجود في طرف ولاية شيكاغو، جلس «دوجلاس كوايل» يفكر مخاطبًا نفسه:

- يا له من أمر جيد أن أعود إلى الأرض.

لقد بدأ بالفعل تذكر الشهر الذي قضاه على سطح كوكب المريخ، لكن تلك الذكريات لم تتعد صورًا لفوهات حفر عملاقة، وتلال متآكلة، وحالة من الحركة والتنقل، وعالم من الغبار حيث لا يحدث شيء تقريبًا، وجزء كبير من اليوم يتم قضاؤه في فحص وإعادة فحص أسطوانات الأكسجين المتنقلة، ومراقبة أشكال الحياة المريخية التي تتكون بوجه عام من صبار متواضع الشكل بني ورمادي اللون وديدان متحوصلة. وكما يحدث دومًا في تلك الرحلات، قام بإحضار بعض العينات من صور الحياة الحيوانية الموجودة هناك بشكل سري، وقام بتهريبها بطريقة ما من التفتيش والجمارك. وهي برغم ذلك لا تشكل أي خطورة على الأرض، حيث لن تظل حية بسبب ثقل ضغط الغلاف الجوي.

عندما تذكر هذا الأمر تحديدًا، وضع يده داخل جيب سترته، ليخرج الأنبوبة الصغيرة المحتوية على بعض الديدان المريخية، ولكن وجد بدلًا منها مظروفًا، أخرجه متحيرًا لفحص محتوياته، ليجد به خمسمائة وسبعين عملة «بوسكارد» ورقية من ذات الفئة الصغيرة.

تساءل مندهشًا:

- من أين حصلت على هذه النقود؟!

لقد أنفق كل النقود التي يملكها على تلك الرحلة!

وجد داخل المظروف أيضًا قصاصة ورقية مكتوبًا عليها نصف الرسوم المستردة موقعة من «ماكلين» وتاريخ اليوم.

- «ريكول»!

قالها بصوت عالٍ.

استفسر قائد السيارة الآلي باحترام:

- استعادة ماذا يا سيدي، أو سيدتي؟

سأل «كوايل»:

- هل لديك دليل تليفون هنا؟

- بالطبع سيدي، أو سيدتي.

انفتح درج داخل السيارة، انزلق منه دليل تليفونات شريطي متناهي الصغر لمقاطعة «كوك».

فتح «كوايل» الدليل، وبدأ في التقليب باحثًا عن رقم معين، وهو يشعر بالخوف يزداد بداخله.

- ها هو ذا، خذني إلى هذا العنوان، إلى «ريكول المتحدة»، لقد غيرت رأيي ولا أريد العودة للمنزل.

- حاضر سيدي أو سيدتي، كما ترغب.

رد عليه السائق الآلي. وفي لحظات كانت سيارة الأجرة تأز منطلقة في الطريق المعاكس.

- هل يمكنني استخدام التليفون؟

قُدِّم له تليفون ثلاثي الأبعاد حديث لامع.

- تفضل سيدي أو سيدتي، على الرحب.

قام بالاتصال برقم شقته، وبعد برهة قصيرة وجد نفسه يرى صورة مصغرة تكاد تضاهي الحقيقة لزوجته «كرستين» ظاهرة على شاشة التليفون الصغيرة أمامه، فاستهل كلامه معها:

- لقد ذهبت إلى المريخ.

- أنت ثمل!

قالت ملوية شفتيها باحتقار أو ربما أسوأ من هذا.

- أقسم لكِ.

تساءلت «كرستين»:

- متى؟

- لا أعرف.

شعر بالارتباك، وهو يشرح لها ما حدث:

- رحلة زائفة عن طريق واحدة من تلك الشركات المتخصصة في التلاعب بالذاكرة وغرز ذكريات إضافية ملفقة في العقل، أو ما شابه ذلك، لكن الأمر لم ينجح.

- بل ما أنت إلا ثمل.

ردت مقاطعة إياه بازدراء، وقطعت الاتصال.

أغلق الخط من طرفه، وهو يشعر بوجهه يلتهب غيظًا. دائمًا الطريقة الجافة نفسها والأسلوب القاطع الحاسم. دائمًا تعاملني وكأني لا أفقه أي شيء، وهي لها الكلمة الأخيرة، تساءل بهم، وهو منقبض الصدر:

- ما هذا الزواج بحق الإله!

توقفت سيارة الأجرة بجانب الرصيف تمامًا، أمام بناية صغيرة حديثة الطراز، جذابة المظهر، لونها قرنفلي، موضوع فوقها لوحة إعلانية متغيرة الألوان، مكتوب عليها: «ريكول المتحدة».

كانت موظفة الاستقبال حسنة المظهر وعارية من الوسط إلى الأعلى. كانت تجلس خلف مكتبها بهدوء ولكنها ارتبكت، ونظرت له مندهشة عندما رأته يدخل البناية ولكن سرعان ما تمالكت نفسها، وقالت:

- أوه! مرحبًا سيد «كوايل»، كيف حالك؟ هل نسيت شيئًا؟

- نعم، باقي الرسوم التي دفعتها.

كانت قد تمالكت نفسها تمامًا، وسيطرت على اندهاشها، بينما ترد:

- رسوم؟ أظن أنك على خطأ يا سيد «كوايل»، أنت لم تدفع أي رسوم، بل أتيت هنا لمعرفة إمكانية القيام برحلة فائقة الواقعية، ولكن.. - هزت كتفيها الناعمتين مكملة - ولكنك لم تقم بأي رحلة.

- أنا أتذكر كل شيء يا آنسة، رسالتي إلى الشركة التي بدأت كل هذا الأمر بالكامل. أتذكر حضوري هنا، ومقابلتي للسيد «ماكلين»، وحضور رجلين من المعمل، اصطحباني معهما، وأعطياني دواءً ما لتخديري و...

فكرت الموظفة لا عجب إذًا في أنهم أعادوا له نصف الرسوم التي دفعها، يبدو أن الذاكرة الزائفة لرحلة المريخ لم تعمل، على الأقل كما أكدوا له، ردت عليه محاولة تلطيف الوضع:

- سيد «كوايل» برغم كونك موظفًا صغيرًا؛ فإنك رجل حسن المظهر، ولك وجه وسيم يفسد الغضب ملامحه، إذا كان الأمر سيجعلك أفضل فربما أدعك تدعوني للخروج معك في سهرة، و...

- أنا أتذكرك أنت أيضًا.

قاطعها «كوايل» في غضب عارم وهو يشير لها، ويكمل بتوحش:

- لأن صدر العاري المدهون باللون الأزرق هذا - مثلًا - من الصعب جدًّا نسيانه. كما أتذكر بوضوح أن السيد «ماكلين» قال لي إنه في حالة تذكري لكل تلك التفاصيل وتذكري لحضوري إلى «ريكول»، فمن حقي استرداد كافة ما دفعته، ولذا أريد مقابلة السيد «ماكلين» حالًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مُضي بعض الوقت، وجد «دوجلاس» نفسه في ذات المكتب الأنيق المصنوع من خشب الجوز الحقيقي، جالسًا في مواجهة السيد «ماكلين» بالضبط، كما حدث مبكرًا في اليوم نفسه منذ ساعة أو أكثر.

قال «كوايل» متهكمًا:

- يا لها من تقنيات تلك التي تملكونها.

كانت خيبة أمله واستيائه قد بلغا أوجهما حينها.

- إن ما تدعونها «ذاكرة رحلة المريخ كعميل سري بين الكواكب» ضبابية، مشوشة ومبهمة وممتلئة بالتناقضات، كما أنني أتذكر ما حدث هنا معكم بالكامل، يجب عليَّ شكواكم في مكتب تحسين الأعمال.

كان يشتعل غضبًا عند قوله هذه الجملة الأخيرة، حيث طغى الشعور بأنه تم غشه والاحتيال عليه، مما حطم كراهيته للتورط في مشاجرة في مكان عام.

بدا «ماكلين» متجهمَ الوجه، وحذِرًا في الوقت نفسه، بينما يرد على «كوايل»، قائلًا:

- نحن نستسلم يا سيد «كوايل» وسنعيد لك أموالك كافة. وأنا أعترف لك بحقيقة أننا في الواقع لم نقم بفعل أي شيء معك.

بدا في صوته رنة الاستسلام، فتساءل «كوايل» متعجبًا:

لم تفعلوا أيء شيء؟! لم تزودوني حتى بالمواد الزائفة التي ادعيتم أنكم ستزودونني بها، لإثبات ذهابي للمريخ؟! كل تلك الأشياء التي تفننت في وصفها لي لم ينتج عنها أي شي واحد لعين؟ ولا حتى كعب تذكرة أو بطاقة بريدية أو جواز سفر أو حقن تطعيم؟ ولا أي دليل واحد؟

قاطعه «ماكلين»:

- اسمع يا «كوايل»، ماذا لو أخبرتك أن تنسى الموضوع برمته.

قالها وضغط على زر أعلى مكتبه، وقال:

- «شارلي»! أرجو منك كتابة شيك بمبلغ خمسمائة وسبعين باسم السيد «دوجلاس كوايل»، شكرًا لك.

ترك الزر من تحت إصبعه، ونظر لـ«كوايل».

حضرت موظفة الاستقبال فور إنهاء المكالمة، ومعها الشيك المطلوب، وضعته أمام «ماكلين» للتوقيع، وغادرت المكتب تاركة الرجلين الجالسين في مواجهة بعضهما عبر المكتب الخشبي العملاق.

- دعني أنصحك بأمر مهم يا «كوايل».

قالها «ماكلين» وهو يوقع الشيك ويسلمه إلى «دوجلاس» عبر المكتب.

- لا تخبر أحدًا بأمر.. احم.. هذه الرحلة إلى المريخ.

- أي رحلة؟

رد «ماكلين» مترددًا:

- حسنًا، هذا هو الأمر، تلك الرحلة التي تتذكرها بشكل مبهم، تصرف وكأنك لا تتذكر شيئًا، تظاهر بأنها لم تحدث، ولا تسألني لم، فقط خذ بنصيحتي - بدأ في التعرق متوترًا - والآن أستمحيك عذرًا، فلدي أعمال وزبائن آخرون عليَّ مقابلتهم.

قام يفتح الباب لـ«كوايل».

رد «كوايل» ساخرًا، بينما يخرج:

- شركة تؤدي عملها بهذا الفشل لا يجب أن يكون لها زبائن إطلاقًا.

قالها وأغلق الباب خلفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في طريقه إلى شقته داخل سيارة الأجرة كان يفكر في صيغة مناسبة لخطاب الشكوى الذي سيكتبه إلى مكتب تحسين الأعمال - إدارة الأرض. بمجرد وصوله إلى الآلة الكتابة سيبدأ في ديباجته.

شعر أنه من الواجب تحذير الآخرين من التعامل مع «ريكول المتحدة».

عند وصوله إلى شقته دلف من فوره إلى غرفة مكتبه وجلس أمام الآلة الكتابة من طراز «هريمز روكيت»، وفتح الدرج العلوي للمكتب يبحث عن أوراق الكربون.. وهنا لاحظ وجود علبة صغيرة مألوفة تعرف عليها بدهشة. هذه العلبة كان قد ملأها بعناية وهو على كوكب المريخ بنماذج حيوانية من الديدان الحية، وقام بتهريبها من الجمارك. عندما فتح العلبة وجد - غير مصدق - ست ديدان متحوصلة ميتة، وعدة أشكال من الكائنات الحية أحادية الخلية - جافة ومفتتة كالغبار- التي تتغذى عليها الديدان. تعرف على كل هذا برغم تحللها وموتها لأن الأمر أخذ منه يومًا كاملًا لجمعها من بين الجلاميد الصخرية العملاقة على سطح المريخ. كانت رحلة استكشاف عجيبة لا تُنسى.

«ولكنني لم أذهب إلى المريخ».. فكر سريعًا، ولكن على الجانب الآخر.

- لماذا عدت إلى البيت في منتصف النهار؟

ظهرت «كرستين» على باب الحجرة وهي تحمل ملء ذراعيها أكياس مشتريات البقالة ذات اللون البني الفاتح.

كان صوتها كما هو دومًا يحمل رنة الاستهجان والاتهام.

- هل ذهبت إلى المريخ؟ أنت حتمًا يمكنك تأكيد هذا أو نفيه..

سألها «كوايل» متجهمًا:

- لا بالطبع لم تذهب إلى المريخ، كنت ستعرف هذا كما أظن.. أنت تحلم بهذا الأمر طوال الوقت..

- أظن أني ذهبت.

أضاف بعض برهة متنهدًا:

- وفي الوقت نفسه أظن بأني لم أذهب.

- عليك أنت أن تقرر.

- كيف على هذا؟ لدى مسارات الذكرى نفسها داخل عقلي - واحدة حقيقية والأخرى مزيفة - ولا يمكنني معرفة أيهما حقيقي. عليكِ مساعدتي، هم لم يتلاعبوا بك، أليس كذلك؟

ردت «كرستين» بصوت متزن متماسك:

- «دوج»! إذا لم تتمالك نفسك، فسينتهي ما بيننا، سأتركك!

خرج صوته أجش وجافًا:

- أنا في أزمة، ربما أمر بحالة نفسية أو اضطراب عقلي، وهذا ما لا آمله ولكن ربما هذه هي الحقيقة، هذا هو التفسير الوحيد لما يحدث لي.

وضعت الأكياس على الأرض وتوجهت للخزانة:

- أنا لا أمزح.

قالتها بهدوء، وهي تخرج معطفًا من الخزانة، وترتديه متوجهةً إلى باب الشقة.

- سأتصل بك قريبًا، أرجو أن تتمالك نفسك، وتعود كما كنت سابقًا، أنا حقًّا أرجو هذا لك. هذا لصالحك، وداعًا.

هتف بيأس والتماس:

- انتظري، فقط أكدي لي الأمر أو انفيه.. هل ذهبت أم لم أذهب؟ أخبريني.. ولكن من الجائز أنهم تلاعبوا بذاكرتك أنت أيضًا.

سمع صوت صفق الباب خلفها، بعد أن غادرت الشقة أخيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«حسنًا، هذا هو الأمر... ضع يديك فوق رأسك يا «كوايل»، ارفع يديك للأعلى واستدر لمواجهتي».

انطلق هذا الأمر فجأة من خلف «كوايل»، فاستدار بشكل غريزي دون أن يرفع ذراعيه.

كان الرجل الواقف أمامه يرتدي الزي الأرجواني المميز لوكالة الشرطة الكوكبية «إنتربلان»، كما كان يحمل سلاحًا أصليًّا من طراز «يو إن». ولسبب غير معلوم بدا هذا الشخص مألوفًا لدى «كوايل» بشكل مبهم ضبابي ولذا قام متخشبًا برفع يديه للأعلى.

قال الشرطي:

- الآن أنت تتذكر رحلتك إلى المريخ، نحن على علم بكل تحركاتك اليوم وكل أفكارك وخاصة المهمة جدًّا التي راودتك في رحلة عودتك الأولى إلى المنزل من «ريكول المتحدة»، وذلك لأن لدينا جهازَ تعقبٍ متناهي الصغر مزروعًا داخل جمجمتك وهذا ما يجعلنا دومًا على إطلاع.

- جهاز إرسال تخاطري مطور من البلازما المكتشفة من كوكب لونا.

انتفض «كوايل» شاعرًا بالتقزز عندما فهم، هذا الشيء الحي داخل جمجمته وعقله يستمع ويتغذى على أفكاره. الشرطة الكوكبية تستخدمه في مهامها، حتى إن الأمر كان مذكورًا في الصحف الانتقائية «هوميوبابيس»، لذا فالأمر حقيقي برغم كآبته، ولماذا أنا؟ ما الذي فعله أو فكر فيه، وما علاقة كل هذا بـ«ريكول المتحدة»؟

قاطع الشرطي أفكاره:

- في الواقع، ليس لهذا الأمر علاقة بـ«ريكول»، هذا الأمر بينك وبيننا - نقر على أذنه اليمنى - أنا لا أزال أتلقى خواطرك وأفكارك من الجهاز المزروع في رأسك.

رأى «كوايل» داخل أذن الرجل قرصًا أبيضَ بلاستيكيًّا دقيقًا، بينما أكمل الشرطي مبتسمًا:

- لذا عليَّ تحذيرك فكل ما تفكر فيه قد يقيد ضدك في المحكمة، لكن ليس هذا ما يهم الآن، فقد كنت دخلت مرحلة النسيان التام بنجاح، لكن ما أنعش ذاكرتك هو تعرضك لمخدر الـ«ناركدرين» في «ريكول»، مما أدى إلى إخبارك المالك مستر «ماكلين» ومساعديه عن الرحلة، وأين ذهبت، ولصالح من تعمل، وبعض مما قمت به أيضًا. هم خائفون بشدة ويتمنون لو أنهم لم يروا وجهك قطُّ.

أكمل متأملًا:

- وهم على حق في خوفهم هذا.

- أنا لم أقم بأي رحلة، هذه ذاكرة مزيفة تمت زراعتها داخل عقلي في «ريكول المتحدة» بطريقة غير سليمة.

لكنه تذكر العلبة المحتوية على الديدان المريخية (عينات حية من المريخ) الموجودة في درج مكتبه.. وتذكر أيضًا بوضوح معاناته في جمعها. بدت تلك الذكرى حقيقية والعلبة ومحتوياتها حقيقية، إلا إذا كان «ماكلين» وفريقه قد قاموا

بوضعها.. ربما كانت هذه واحدة من الأدلة التي تحدث عنها «ماكلين» بعفوية. ذكرى رحلة المريخ المزيفة التي لم يقتنع بها، ولكن يبدو أن الشرطة الكوكبية - لسوء حظه - قد اقتنعت بها. هم يظنون أنني قد ذهبت فعلًا إلى المريخ ويظنون أنني مدرك لهذا.

رد الشرطي على توارد افكاره:

- نحن لا نعرف فقط عن ذهابك للمريخ، ولكن أيضًا نعرف أنك تذكرت ما يكفي لتسبب لنا المتاعب، ولا فائدة لنا من إعادة مسح ذاكرتك الواعية مرة ثانية، لأنك ببساطة ستعود لـ«ريكول» ثانيةً، معيدًا تكرار ما حدث من البداية. كما أننا لا يمكن أن نفعل شيئًا لـ«ماكلين» وعملياته، لأننا لا نملك سلطة قضائية ضد أي شخص سوى رجالنا. على أية حال فـ«ماكلين» لم يرتكب أي جريمة.. وأنت أيضًا لم تفعل شيئًا.

قالها متأملًا وهو ينظر لـ«كوايل»:

- أنت لم تتعمد الذهاب لـ«ريكول»، وفكرة استعادة الذاكرة موجودة في رأسك، بل ذهبت للغرض العادي الذي يذهب به الناس إلى هناك، من أجل المغامرة التي يرجوها العامة الكسالى البلداء، ولكن لسوء حظك لم تكن أنت من هؤلاء العامة الكسالى البلداء بل كان لديك بالفعل مغامرتك الحقيقية، آخر شيء في الكون كنت في حاجة له هو دورة من «ريكول»، ولهذا السبب فإن الأمر خطير للغاية ومهلك لك ولنا وربما لـ«ماكلين» أيضًا.

قال «كوايل»:

- ولمَ الأمر بكل تلك الخطورة عليكم، ما الضرر من تذكر تلك الرحلة المريخية المزعومة، وما الذي فعلته هناك؟

رد الشرطي:

- لأن ما فعلته لا يلائم الصورة العامة المثالية الرائعة المعروفة عن والدنا العظيم، أنت فعلت لنا ما لم نفعله قطُّ كما ستتذكر قريبًا بفعل الـ«ناركيدرين». على سبيل المثال أنت تذكرت تلك العلبة الموضوعة في درج مكتبك منذ 6 أشهر منذ عودتك، برغم أنك لم تُظهر تجاهها أي فضول سابق لمعرفة ما بها طوال تلك المدة، كما أننا نحن لم نكن حتى على علم بوجودها حتى تذكرتها أنت اليوم في طريقك من «ريكول»، ولذا حضرنا اليوم بسرعة إليك لنبحث عنها.

أضاف بلا مبالاة:

- ولكن لسوء الحظ ضاع الوقت منا.

ظهر شرطي آخر يرتدي زي «إنتربلان» وأخذ يتشاور مع الأول بشكل سريع.

خلال ذلك، تذكر «كوايل» أكثر. كان الشرطي محقًا بشأن الـ«ناركيدرين».. من الواضح أنهم في «إنتربلان» قد جربوا تأثيره.. هو يعلم هذا حق العلم فقد

شاهدهم يضعون مسجونًا تحت تأثير الـ«ناركيدرين».. أين وقع هذا الأمر؟ في مكان ما على كوكب الأرض؟ من الأرجح على كوكب «لونا».. فكر في الأمر وهو يستعرض الصور من ذاكرته الضعيفة والتي بدأت تتحسن بسرعة.. بدأ في تذكر كل شيء.. سبب إرسالهم إياه إلى المريخ والمهمة التي قام بها.. لا عجب في أنهم قاموا بمسح ذاكرته.

- يا إلهي!

قالها الشرطي الأول قاطعًا حديثه مع رفيقه، من الواضح أنه التقط أفكار «كوايل».

- حسنًا، توجد هنا مشكلة أخرى أكثر خطورة.

قالها وهو يتجه إلى «كوايل» ويصوب إليه السلاح:

- علينا قتلك.. فورًا..

قال الشرطي الآخر بعصبية:

- ولم الآن؟ ألا يمكن أن نقتاده إلى مقر «إنتربلان» في نيويورك وهناك يمكنهم...

رد عليه الشرطي مشيرًا لـ«كوايل»:

- إنه يعرف لماذا يجب أن نقوم بالأمر الآن.

بدا عليه العصبية، لكن «كوايل» أدرك الأمر كله، عادت ذاكرته إليه بالكامل الآن، وفهم كليًّا سبب توتر الضابط. قال «كوايل» بصوت جاف وغليظ:

- على المريخ.. قتلتُ رجلًا بعد أن اجتزت خمسة عشر حارسًا شخصيًّا مدججين بالأسلحة.

تم تدريبه في «إنتربلان» خلال خمس سنوات ليكون قاتلًا محترفًا، لذا فهو على علم تام بكيفية نزع سلاح الخصوم، ومهاجمتهم بكفاءة، مثل هذين الاثنين، خاصة الشرطي ذا القرص الأبيض في أذنيه - الذي يعرف هذا الآن - إذا تحرك بسلاسة كافية.

انطلق المسدس ولكنه كان قد تحرك فعليًّا بسرعة خاطفة إلى الجانب الآخر، وفي الوقت نفسه، وجّه ضربة خاطفة قوية إلى الشرطي الحامل للسلاح، وفي ثوانٍ، كان قد استولى على السلاح وصوبه إلى الضابط الآخر، قبل أن يقول لاهثًا:

وصلت لك أفكاري. كنت على علم بما انتويته، ولكني فعلته على أية حال.

قال الضابط المصاب محاولًا الوقوف:

- لن يستخدم السلاح يا سام. هو يعلم أن أمره قد انتهى، ويعلم بأننا نعلم هذا أيضًا. من الأفضل أن تستسلم يا «كوايل».

قالها وهو ينحني من الألم الشديد، ووقف مهتزًا على قدميه مادًا يده لـ«كوايل» ليعطيه المسدس:

- لن يمكنك استخدامه، ولكن إذا أعدته إليَّ أعدك بأنني لن أقتلك به، ولكن ستُقدم إلى جلسة استماع، وسيكون هناك شخص ذو رتبة أعلى من «إنتربلان» يقرر أمرك، وربما تمكنوا من مسح ذاكرتك مرة ثانية، أو استبدالها بذاكرة أخرى. ولكنك على علم الآن بالأمر الذي كنت سأقتلك بسببه، وأنا لا أستطيع منعك من تذكره لذا فأنت تعرف أن سبب رغبتي في قتلك، هو سبب عقلاني.

قفز «كوايل» قابضًا على المسدس بشدة بين يديه، وعدا خارج الشقة في اتجاه المصعد، بينما يفكر ليسمع الضابط أفكاره:

- إذا تبعتماني سأقتلكما.

ضغط على زر المصعد، فأغلقت الأبواب هابطة.

لم يلحق به الشرطيان، من الواضح أنهما التقطا الأفكار المقتضبة المتوترة، وقررا عدم المجازفة واختبار حظهما.

في أثناء هبوط المصعد، فكر في أنه قد أفلت منهما لفترة وجيزة، ولكن ما الخطوة التالية؟ وإلى أين يتجه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل المصعد إلى الطابق الأرضي. بعد لحظات، اختلط «كوايل» وسط حشود العامة المسرعة في الطرقات، كانت رأسه تؤلمه، ويشعر بالإعياء، لكنه ذكّر نفسه بأنه نجا من الموت، حيث كانا سيطلقان النار عليه داخل شقته.

شرع يفكر: «من المحتمل أن يحاولا مرة ثانية عندما يجداني، وبينما هذا الجهاز داخل رأسي لن يستغرقهما الأمر طويلًا».

من سخرية القدر أنه حصل تمامًا على ما كان يبغيه تحديدًا من «ريكول المتحدة»، مغامرة بها مخاطر العمل السري مع منظمة «إنتربلان»، رحلة سرية إلى المريخ حيث تتعرض حياته إلى المخاطر والأهوال، كل ما رغب به في الذاكرة المزيفة ولكن كل شيء كان واقعيًّا وحدث بالفعل.

جلس وحيدًا على أحد مقاعد الحدائق العامة، وأخذ متثاقلًا يراقب سربًا من الطيور نصف المريخية التي تم استردادها من المريخ ثنائي الأقمار، وكانت لها قدرة على التحليق لمسافات عالية جدًّا متحدية قوة الجاذبية الأرضية.

أخذ يفكر: «ربما يمكنني الرجوع إلى المريخ، ولكن ماذا بعد هذا؟ سيكون الأمر أسوأ على المريخ، ستقوم المنظمة السياسية التي اغتلت قائدها باكتشاف أمري فور هبوطي على المريخ، وهناك سيكونان هما و«إنتربلان» في لإثري».

«هل يمكنك قراءة أفكاري؟». فكر في الأمر بحدة.

يا له من طريق للوصول إلى الجنون. يجلس وحيدًا وهو يشعر بهم يقومون بضبط عقله والاستماع لأفكاره كما لو كان جهاز راديو. اختلج مقشعرًا ووقف على قدميه وأخذ في السير دون هدف بينما يداه في جيبي سرواله.

«طالما ظل هذا الجهاز داخل رأسي.. سأقوم بعقد صفقة معكم».. فكَّر مع نفسه ومعهم.

« هل يمكنكم وضع نموذج ذاكرة مزيفة داخل عقلي مرة ثانية، كما فعلتم مسبقًا؟ ذاكرة تحتوي على حياة روتينية عادية لم أذهب فيها مطلقًا إلى المريخ، ولم يقع بصري عن قرب على زي «إنتربلان» ولا أعرف كيف أحمل السلاح؟».

رد عليه صوت داخل رأسه:

- كما تم شرح الأمر لك بعناية، لن ينجح هذا الأمر مرة ثانية، عندما عدت من مهمتك على المريخ منذ شهور طويلة، قمنا بمسح ذاكرتك بالكامل، واستبدلناها بحياة روتينية عادية، ولم نظن حينها بأننا سنضطر للقيام بهذ العمل ثانيًا، أين أنت الآن؟

- أتمشى، متجهًا إلى حتفي على يد رجال «إنتربلان».

رد مفكرًا على الصوت داخل رأسه، وأكمل الحوار التخاطري:

- ولكن كيف لك أن تتأكد من فشل تلك المحاولة؟ ألا تعمل أساليب «ريكول المتحدة» بنجاح؟

- كما قلنا مسبقًا، إذا تم تزويدك بحزمة من الذكريات العادية والمتوسطة ستصاب بالاضطراب والقلق كما حدث في المرة الأولى، وحينها ستلجأ ثانيًا إلى «ريكول» حتمًا أو إلى أحد منافسيها، لذا لن نخوض في هذا الأمر مرة ثانية.

رد «كوايل»:

ماذا لو فرضنا أنه بمجرد محو ذاكرتي الأصلية يتم استبدالها بأمر آخر أكثر حيوية وإثارة من مجرد ذاكرة حياة روتينية عادية، أمر يمكنه أن يرضي ما أميل إليه من مغامرة، ربما رغبتي في المغامرة هو السبب الذي قمتم من أجله باختياري لتلك المهمة، ولذا عليكم أن تعطوني شيئًا آخر مكافئًا للمغامرة، مثلًا تجعلوني أغنى رجل على الأرض، ولكني تبرعت بكل أموالي للمؤسسات التعليمية، أو أنني كنت مكتشفًا مشهورًا للفضاء البعيد بين المجرات، أي شيء من هذا النوع. ألن تفلح واحدة من تلك الذكريات؟

صمت.

أكمل «كوايل» أفكاره بإصرار:

- جرب هذا، أحضر بعضًا من خيرة الأطباء النفسيين العسكريين ليكتشفوا عقلي، وينقبوا داخله، ويحددوا ما أكثر نزعات أحلام يقظتي وأمنياتي. النساء! الآلاف منهن مثل «دون جوان»، اجعلني رجلًا مستهترًا على المستوى الفضائي، له

عشيقة داخل كل مدينة على كل كوكب، الأرض والمريخ وكوكب «لونا»، فقط تخليت عن كل هذا بسبب الإرهاق، أي شي من هذه العينة، ألن تفلح واحدة من تلك الذكريات؟ أرجوك جرب واحدة من هذه الأفكار.

تساءل الصوت داخل رأسه:

- سيكون عليك الاستسلام طواعية لنا؟ إذا وافقنا على ترتيب مثل هذا الحل، وكان الأمر ممكنًا.

بعد مدة من التردد، رد «كوايل»:

- نعم، سأغامر بالأمر، وبأنك لن تقتلني بهذه البساطة.

أجابه الصوت فورًا:

- عليك إذًا بإجراء الخطوة الأولى، قم بتسليم نفسك إلينا، وسنقوم بتقصي إمكانية القيام بما تريد، ولكن إذا لم نستطع القيام بالأمر، وبدأت ذاكرتك الأصلية بالظهور مرة أخرى كما يحدث في الوقت الراهن، فسيكون علينا حينها...

صمت الصوت قليلًا، ثم أكمل:

- تدميرك.. كما تعلم حتمًا.. والآن يا «كوايل» هل لا تزال مصرًا على المحاولة؟

- نعم لأن البديل هو الموت حتمًا.

على الأقل بهذه الطريقة لديه فرصة متاحة للنجاة، فرصة ضئيلة حقًّا، ولكنها متاحة.

- عليك الحضور وتسليم نفسك في الثكنة العسكرية الرئيسية في نيويورك، الشارع الخامس رقم 580 الطابق الـ12. وبمجرد تسليم نفسك سيقوم أطباؤنا النفسيون بالعمل عليك، والقيام باختبارات الشخصية، ومحاولة تحديد أقصى طموح خيالي يلائم شخصيتك، ومن ثم نذهب بك إلى «ريكول المتحدة»، وهناك يمكنهم العمل على تحقيق أمنيتك، وزرع ذاكرة الماضي البديل التي تريد، مع تمنياتنا بالحظ الطيب، نحن مدينون لك على أية حال، لقد كنت أداة ذات كفاءة لنا.

كانت نبرة الصوت لا تحمل أي خبث أو ضغينة، إذًا فقد شعرت تلك المنظمة بالتعاطف تجاهه.

رد «كوايل»:

- شكرًا.

وبدأ في البحث عن سيارة أجرة آلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال له الطبيب النفسي العجوز ذو الملامح الصارمة:

- سيد «كوايل»، أنت لديك أكثر الأحلام الخيالية الشيقة، من المحتمل أنه لا يوجد أحد مثلك يعي هذا الأمر أو يفترضه، هذا هو الطريق الغالب الذي آمل ألا يضايقك كثيرًا سماعه.

قال شرطي «إنتربلان» ذو الرتبة العالية بحدة:

- من الأفضل له ألا ينزعج كثيرًا عند سماع هذا، إلا إذا كان يتوقع ألا يتم قتله.

أضاف الطبيب قائلًا:

- على عكس الحلم الخيالي في الرغبة بأن تكون عميلًا سريًّا لـ«إنتربلان»، والتي كانت بشكل نسبي دليلًا على النضج، وبها قدر كبير من المعقولية، فإن هذا الخيال المفرط هو نتيجة حلم غريب من طفولتك، ولا عجب إذًا في فشلك في تذكره. يتلخص الخيال الذي تريده بأنه عندما كنت في سن التاسعة، كنت تتمشى وحدك في طريق ريفي مقفر، عندما هبطت فجاة أمامك مباشرة مجموعة غير مألوفة من سفن الفضاء القادمة من مجموعة شمسيية بعيدة، لم يرهم أحد آخر على كوكب الأرض عداك يا مستر «كوايل». كانت المخلوقات داخل السفينة ضئيلة الحجم جدًّا وضعيفة، تقريبًا في حجم فئران الحقل، إلا أنهم كانوا في مهمة لغزو الأرض عن طريق عشرات الألوف من سفنهم القادمة في الطريق والمنتظرة للإشارة التي ستطلقها تلك السفن الاستكشافية.

قال «كوايل»، شاعرًا بمزيج من المتعة والاشمئزاز:

- وأظن أنني قمت بإيقافهم. وحدي قمت بالقضاء عليهم، ربما هجمت عليهم سحقًا وتدميرًا بأقدامي.

رد عليه الطبيب النفسي في صبر:

- لا على العكس.

- أنت أوقفت الغزو، ولكن ليس بسبب سحقهم، وإنما عن طريق ما أظهرته تجاههم من العطف والشفقة، وبرغم تواصلهم مع بعضهم بعضًا بالتخاطر العقلي، إلا أنك عرفت سبب قدومهم إلى الأرض. وبما أنهم لم يقابلوا مطلقًا مثل هذه الطباع الإنسانية الطيبة من كائن أرضي حي عاقل مسبقًا، ولكي يظهروا تقديرهم لك عقدوا معك ميثاقًا.

قاطعه «كوايل» قائلًا:

- بألا يقوموا بغزو الأرض طوال فترة بقائي على قيد الحياة؟

رد الطبيب:

- بالضبط.

وجَّه كلامه إلى ضابط «إنتربلان»، قائلًا:

- يمكنك أن ترى كم تلائم هذه الفكرة شخصيته، برغم تظاهره بالاستهجان لها.

قال «كوايل» شاعرًا بالرضا المتزايد:

- إذًا بمجرد وجودي على قيد الحياة، فأنا أحافظ على سلامة كوكب الأرض من غزو المخلوقات الفضائية، أنا في الواقع أهم مخلوق حي على سطح الأرض، ودون حتى أن أحرك إصبعًا واحدًا.

أيّده الطبيب قائلًا:

- نعم بالفعل. وهذا هو حجر الأساس داخل نفسيتك، حلم الطفولة الأبدي الذي دون الاستعانة بالعلاج الدوائي والعقاقير لم تكن لتتذكره نهائيًّا، ولكنه كان دائمًا موجودًا بداخل عقلك، ومختزنًا في أعمق ذكرياتك ولكنه لم يتوقف قطُّ.

تحدث الضابط إلى مستر «ماكلين» الذي كان يستمع إلى هذا الحوار بشغف واهتمام:

- هل يمكنك زراعة نموذج ذاكرة إضافية مزيفة بهذا العمق داخل عقله؟

رد «ماكلين»:

لدينا نماذج من كل أنواع الخيالات الممكنة. صدقني، لقد استمعت إلى أسوأ من هذا بكثير، وبالتأكيد يمكننا التعامل معه، بعد 24 ساعة من الآن لن يدرك «كوايل» أنه قد أنقذ الأرض فقط، بل سيؤمن بإخلاص بأن الأمر حدث حتمًا.

قال ضابط «إنتربلان»:

- يمكنك البدء في العمل إذًا.. وقد قمنا بإعداده ومحو ذاكرة رحلة المريخ مرة ثانية من عقله.

- أي رحلة للمريخ؟

تساءل «كوايل»، ولما لم يتلقَ أي رد، قام بتأجيل السؤال، وحفظه في عقله لاحقًا.

عندما ظهرت مركبة شرطة «إنتربلان»، اندفعوا جميعًا داخلها مصطحبين «كوايل» معهم. الضابط والطبيب و«ماكلين»، اندفعت السيارة تشق طريقها إلى شيكاغو حيث مقر «ريكول المتحدة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجّه الضابط كلامه إلى «ماكلين» المتعرق عصبي المظهر:

- من الأفضل لك عدم ارتكاب أي أخطاء هذه المرة.

تمتم «ماكلين» وهو يربِّت على جبهته المتعرقة بمنديل جيب كتاني:

- لا أرى ما يمكن أن يحدث خطأ هذه المرة، لا علاقة للأمر هنا بالمريخ أو «إنتربلان»، لدينا طفل وحيد يمنع غزوًا لكوكب الأرض قادم من مجموعة شمسية بعيدة.

هز رأسه مؤيدًا لما يقول:

- يا لها من فكرة خيالية يتوق لها أي طفل، كما أن الوازع هنا أخلاقي وليس القوة البدنية، كم هو أمر جذاب وطريف.

لم يعلق عليه أحدهم بأي كلمة. أكمل «ماكلين»:

- في الواقع فالأمر مؤثر حقًّا.

رد ضابط «إنتربلان» ذو الرتبة العالية:

- ولكنه متغطرس، فبعد موته سيستأنف الغزو الفضائي، لا عجب في ألا يتذكر مثل هذه الأحداث، لأنها من أكثر الخيالات المبالغة في أنانيتها التي صادفتها.

أكمل ناظرًا إلى «كوايل» بنظرة استهجان:

- لا أصدق أننا قد وضعنا مثل هذا الرجل في قائمة رواتبنا الشهرية.

عندما وصلوا إلى مقر «ريكول المتحدة»، كانت «شيرلي» - موظفة الاستقبال - في استقبالهم، وحيت «كوايل» وهي منبهرة الأنفاس ومرتبكة:

- أهلًا بعودتك يا مستر «كوايل».

كان نهداها الشبيهان بثمرتي شمَّام ناضجتين، مدهونين هذه المرة باللون البرتقالي الفاقع المثير للشهوة. أكملت حديثها إلى «كوايل»:

- أنا آسفة لما حدث من أخطاء سابقة غير مقصودة معك، ومتأكدة من أن الأمر سيكون على خير ما يرام هذه المرة.

استمر «ماكلين» في مسح عرق التوتر من على جبهته بمنديل جيبه الأيرلندي الطراز المصنوع من الكتَّان الفاخر والمطوي بعناية، قال:

- الأمر أفضل هذه المرة حتمًا.

تحرك بسرعة بصحبة مساعديه «لوي» و«كيلر»، ليرشدوا «كوايل» إلى منطقة العمل. عندما وصل إلى هناك، أعطى لمساعديه التعليمات الجديدة، ورجع إلى غرفة مكتبه المألوف بصحبة «شيرلي» والضابط ذي الرتبة.

تساءلت «شيرلي»:

- هل لدينا حزم مناسبة لأجل هذا الغرض الجديد يا سيد «ماكلين»؟

- أظن هذا، حاول التذكر وحده، ولكنه استسلم أخيرًا، واستعان بالقائمة العملية. المطلوب هو الحزم التالية: 81، 20، 6.

أخرج من غرفة حفظ الأدوات الملحقة بمكتبه الحزم الثلاث المطلوبة، ووضعها على مكتبه لفحصها.

من الحزمة رقم 81 أخرج لهم:

- توجد هنا عصا الشفاء السحرية التي أخذها الزبون المعني - «كوايل» في حالتنا تلك - من سكان الفضاء البعيد وهي هدية وتذكار منهم للتعبير عن امتنانهم وإقرار بفضله عليهم.

تساءل الضابط بفضول:

- هل تعمل؟

رد «ماكلين»:

- حدث هذا مرة، ولكنه كما ترى، استخدمها منذ سنوات بعيدة في شفاء هذا وذاك، والآن هي مجرد تذكار بلا قيمة، لكنه يتذكر أنها تعمل بشكل مدهش.

ضحك بسخرية، وفتح الحزمة رقم 20:

- وثيقة من الأمين العام للأمم المتحدة يشكره فيها على إنقاذه لكوكب الأرض. هذه الوثيقة ليست مناسبة هنا تمامًا، لأن جزءًا كبيرًا من هذا الخيال يعتمد على سرية الأمر وعدم علم أي أحد به سوى «كوايل»، ولكننا سنستخدمه هنا على أية حال لدعم الفكرة الخيالية لديه.

تفقد الحزمة رقم 6، لكنه لم يستطع تذكر محتوياتها؛ فقام بالعبث داخل المظروف، بينما «شيرلي» وضابط «إنتربلان» يراقبانه بتحفز وفضول.

- كتابة بلغة غريبة!

قالتها «شيرلي».

شرح لهما «ماكلين»:

هذه وثيقة تعريف بالغزاة؛ من أين قدموا ومن يكونون. كما تشمل أيضًا خريطة عن المجموعة الشمسية التابعين له، وخريطة مفصلة للرحلة من هناك حتى كوكب الأرض، بالطبع هي مكتوبة بخط اليد بلغتهم الأم العجائبية تلك، لذا لن يستطيع قراءتها أبدًا، ولكنه يتذكرها، ويتذكر أنهم قاموا بقراءتها مترجمة بلغته.

وضع الثلاث مواد في وسط المكتب، وقال مخاطبًا الضابط:

- يجب زرع تلك الأشياء داخل شقة «كوايل»، ليجدها عندما يصل هناك، كدلائل على تلك الذكرى الدخيلة. تلك هي إجراءات العمل القياسية.

ضحك متوترًا وهو يفكر بما يحدث مع «لوي» و«كيلر» الآن.

فجأة رن جهاز الاتصال الداخلي، وانطلق منه صوت «لوي»:

- مستر «ماكلين»، آسف لمقاطعتك.

جمد «ماكلين» في مكانه، وأصابه الخرس، بينما يسمع «لوي» يكمل:

- حدث أمر جديد، ربما من الأفضل لك الحضور والإشراف بنفسك، مثل المرة السابقة استجاب «كوايل» جيدًا لتأثير الـ«ناركيدرين»، وهو فاقد لوعيه ومسترخ

ومستجيب، لكن..

قفز «ماكلين» جريًا إلى منطقة العمل، دون أن يكمل سماع «لوي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «كوايل» في الوضع السابق نفسه تمامًا، مستلقيًا على سرير طبي معقم نصف فاقد لوعيه ويتنفس ببطء وانتظام. كانت عيناه نصف مغلقتين وفي حالة من عدم وعي لما يحيط به.

قال «لوي» شاحب الوجه:

- بدأنا في استجوابه لتحديد المكان المناسب لغرز الذاكرة الخيالية الخاصة بإنقاذه للأرض وحده، ولكن الغريب أنه..

تمتم «كوايل» بثقل وتباطؤ من تأثير المخدر:

- قالوا لي ألا أخبر أحدًا، كانت تلك هي الاتفاقية، لم يكن عليَّ حتى تذكر الأمر، ولكن كيف لي بنسيان مثل هذه المغامرة المهولة؟!

تأمل «ماكلين» مفكرًا.. فعلًا هو أمر عسير أن تنسى أمرًا كهذا، ولكنك نجحت فيه حتى هذه اللحظة تحديدًا.

أكمل «كوايل»:

- حتى إنهم أعطوني وثيقة تقدير وعرفان أخفيتها في شقتي.

قال «ماكلين» للضابط:

- حسنًا، أقترح ألا تقوموا بقتله الآن، وإلا عادوا مرة ثانية لغزو الأرض.

أكمل «كوايل»، بينما عيناه مغلقتان تمامًا:

- كما أنهم منحوني عصا سحرية خفية لها قوة تدميرية، وهكذا استطعت قتل ذلك الرجل على كوكب المريخ في المهمة التي أرسلتموني من أجلها هناك، ستجدون تلك العصا في درج المكتب العلوي بجوار صندوق صغير به بعض الديدان المريخية، ونباتات مجففة.

بلا كلمة واحدة، استدار ضابط «إنتربلان»، وغادر الحجرة.

«لا حاجة بي إذًا لزرع تلك المواد داخل شقة «كوايل».

فكَّر «ماكلين» بينما يخطو متجهًا إلى مكتبه: «لن نحتاج أيضًا إلى وثيقة الأمم المتحدة المزيفة، فربما النسخة الأصلية في طريقها للظهور».

تمت الترجمة بمعرفة نرمين رشدي([12])

المؤلف:

فيليب كي ديك:

قاص وروائي أمريكي، لقّبه أحد النقاد البارزين بـ«شكسبير الخيال العلمي»، بلغ إنتاجه الأدبي نحو أربع وأربعين رواية، وأكثر من مائة وعشرين قصة قصيرة. بدءًا من عام 2005م، صارت هناك جائزة سنوية باسمه، وهو العام نفسه الذي انضم فيها اسمه إلى «قاعة مشاهير الخيال العلمي» في الولايات المتحدة.

يُعد في طليعة أدباء الخيال العلمي الذين اُستلهمت عن أعمالهم أفلام سينمائية مهمة، مثل: «مقتفو الأثرBlade Runner"، و«استعادة كلية Total Recall»، و«تقرير الأقلية Minority Report»، و«مكتب التسويات The Adjustment Bureau»، وغيرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبقات الـ(ماتريوشكا)
في قصة (استعادة كلية)

ياسين أحمد سعيد

تم معالجة القصة سينمائيًّا مرتين، عام 1990م، ثم - مؤخرًا - 2012م.

المعذرة.. بما أنني من الضعيفين أمام نوستاليجا الحنين إلى الماضي، اخترت - تلقائيًّا - الحديث عن النسخة الأولى، التي قام ببطولتها عمدة كاليفورنيا.

لطالما خطر لي سؤال وجودي، بهذا الصدد: «ما الذي بينك وبين الله يا «شوارزنجر» كي تحوز هذا النصيب من بطولة كلاسيكيات الخيال العلمي؟ «استعادة كلية»، و«المدمر»، و«الرجل الراكض»، إلخ!

نحن بصدد رياضي نمساوي دخل المجال جراء دفعة - ليس ضمن أسبابها «الموهبة الطاغية» - وإنما شهرته كبطل رفع أثقال. نعلم أن إمكانياته محدودة كممثل، نعلم أنه ليس بالذي يستطيع أداء قماشة عريضة من الأدوار، وأزعم أنه مثلنا – أيضًا – يعلم ذلك. على الجانب الآخر، لا أحد ينكر ذكاءه. يبدو هذا جليًّا في حصر نفسه - غالبًا - داخل ما يناسب مقاسه.

هذا ليس عيبًا.. من ناحيتي - شخصيًّا - أحترم الممثل الذي لا تسعفه إمكانياته إلا بالعمل في مساحة محدودة (15%)، فيستميت في استثمار كل سنتيمتر منها، هذا أفضل من الموهوب صاحب الـ(80%)، الذي يحول حياته إلى سلسلة من السقطات والفرص المهدرة (لا داعي لذكر أمثلة).

إذا انتقلنا إلى كفة البطولة النسائية في الفيلم، سنجد أن «شارون ستون» لم تنل مساحة كبيرة، بالمقارنة مع زميلها نمساوي الأصل، إلا أنها تعد أحد كبار المستفيدين من الفيلم، إذ لفتت إليها الأنظار، وكسرت بفضله تلك الفترة الطويلة التي حُصرت أثناءها داخل أدوار ثانوية. في الواقع، استحق أداؤها ذلك، أنا - شخصيًّا - صدقتها كأنثى ناعمة ومتسلطة في الوقت نفسه. لذلك، لم أشعر باغتراب عندما أسفرت عن مهاراتها القتالية في مرحلة متقدمة من الأحداث.

المشكلة كانت في الطرف الآخر «أرنولد شوارزنجر»، الذي يجيد القفز والركل والقتال، إلا أن وجهه يصبح فقيرًا بعض الشيء عندما يُطلب منه تفاعل تعبيري يفوق إمكانياته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتازت مسيرة المخرج الهولندي «فون هوفمان» - عمومًا - بأفلام اجتماعية، تمس (الإنسان/حريته الفردية/ جنسه) في مقابل (نظرة المجتمع)، لطالما أجاد الرجل تقديم هذه الخلطة في إطار مثير للجدل، فلا تخلو أعماله من مشاهد يتم اعتبارها صادمة، حتى بمقاييس شرائح من الجمهور الغربي.

غادر الرجل أوروبا كلها بعد أن سأم ردود الفعل الغاضبة من البعض هناك، تجاه أفلام قدمها هناك في أعوام 1945م، و1980م، و1983م، رغم أنها جمعت بين النجاح التجاري، والترشح لجوائز في الوقت نفسه، عَبَر «هوفمان» المحيط الأطلسي بحثًا عن سقف مختلف داخل هوليوود، غير أنه واصل هناك مسيرته الناجحة - أيضًا - في إثارة حفيظة بعض فئات الجمهور.

كل هذا القدر من الصدامية، لا يقتل روح الطفل داخل «هوفمان»، ذاك الذي كان يهوى - في مراهقته - قصص «إدجار رايس بوروز» ومغامرات المحقق الهولندي «ديك يوس»، كما دخل - كمتفرج - فيلم «حرب العوالم 1953م» نحو عشر مرات. هذه الروح هي التي جعلته يقدم أفلامًا ذات طابع حربي، وأخرى يغلب عليها الخيال العلمي والتشويق، وتحفل بالمؤثرات البصرية التي يجيد ترويضها وتوظيفها. كرمته الأكاديمية الأمريكية لأفلام الخيال العلمي والفانتازيا والرعب، بمنحه جائزة «Saturn Award» كأفضل مخرج عن فيلم «روبوكوب».

لعل أبناء جيلي شاهدوا هذا الفيلم في طفولتهم على القناة الثانية. فيتذكروا تميزه بمعارك، وحبكة شيقة، ومؤثرات متقنة، تلك الخلطة التي استقبلتها ذائقتنا المراهقة بانبهار حينذاك.

تتمحور القصة حول ضابط تعرض لحادث، خرج منه مهشمًا، فتم ترقيع أغلب جسده بأجهزة تعويضية إلكترونية، بل وبرمجوا عقله ليصير كالروبوتات. استمرت الأحداث حتى وصلت بالبطل إلى لحظة اختيار مصيري، ما بين: «أيظل - إلى الأبد - أسيرًا للطاعة التي تمت برمجته عليها، أم بوسعة استعادة إنسانيته؟».

هذا ليس بمفترق طرق بعيد عن الذي تعرض إليه «كوايل»، حيث يتطرق فيلم «استعادة كلية» إلى علاقة «ذاكرة الفرد» بـ«هويته»، فحاول أن يفض الاشتباك بينهما، من خلال فرضية: «لو حذفنا منك ماضيك؟ ومنحناك آخر بديلًا؟ فما الذي يمكن أن يغيره ذلك في شخصيتك؟».

لا أريد أن يوحي كلامي بأننا نتحدث عن أعمال بعمق «الحرب والسلام»، فمثل تلك الأسئلة الوجودية، لا تمثل هدفًا احتل مساحة تذكر من الفيلم، أي بالكاد تستطيع تبينها تحت طبقات من التشويق والتسلية والمؤثرات، تلك الخلطة التي أتقنها «هوفمان» بامتياز في «روبوكوب»، كانت السبب الرئيسي للرهان عليه - بعد ثلاث سنوات - في قيادة دفة «استعادة كلية»؛ فوضع تحت تصرفه ميزانية تُعد الأضخم وقتها، بلغت بميزانية تخطت الخمسين مليون دولار، مما جعلها أحد أعلى الأفلام تكلفة (قياسًا إلى المتوسط السائد إبان صدوره).

على أية حال، استحق الهولندي كل دولار منها، وأثبت أن نجاحه في «روبوكوب» لم يكن وليد الصدفة، فلم تخل الكادرات البصرية لـ«استعادة كلية» من الأفكار الجديدة، سواء الشوارع، الهولوجرام، الأسلحة، الأجهزة المنزلية المستقبلية داخل بيت «كوايد»، ثم ارتفع السقف عندما انتقلت الأحداث إلى كوكب

المريخ، بالذات في التصميم المتنوع لأشكال تشوه السكان هناك، والتي وصلت ذروتها بلقطة ظهور – يعمع – «كواتو»، لا أنسى أيضًا مشهد انبعاجات وجوه الأبطال عند تعرضهم لجو المريخ، دون قناع أكسجين. لاحظوا أننا نتحدث عن جودة المؤثرات، قياسًا إلى زمن إنتاج الفيلم - وليس إلى عصرنا الحالي - والتي أهلته عامها للحصول على الأوسكار.

«محمود مهدي» محرر القناة اليوتيوبية «فيلم جامد»، يقول ما معناه: «هناك بعض الأفلام الخفيفة التي يمكننا أن نستمتع بها جدًّا، إذا قمنا بخفض مستوى انتظارنا أو تدقيقنا في مدى منطقية كل ما نراه».

تكاد القاعدة نفسها أن تنطبق على مشهد (تعرض الأبطال لجو المريخ دون قناع أكسجين)، المشهد نفسه الذي تحدثت توًا عن إعجابي به من الناحية البصرية، أمَّا إذا تحرينا مدى دقته علميًّا؛ فالغلاف الجوي للمريخ يتكون بالأساس من ثاني أكسيد الكربون مع نسب صغيرة جدًّا من النيتروجين والأرجون وبخار الماء، فإذا تعرض له البشر سيصابون بالاختناق والتشنجات حتى يلقون حتفهم، لكن المؤكد أن الرءوس لن تنفجر أبدًا رأيناه على الشاشة.

الكاتب «كلو كول» نشر مقالًا مرحًا يؤكد في سطوره الأولى أنه من كبار معجبي «استعادة كلية»، إلا أن هناك سبع نقاط تزعجه في الفيلم، أحد أبرزها: «كيف تأكد «كوايل» أنه لا يحلم، من خلال الاستدلال بقطرة عرق الطبيب؟ كلنا نتعرق، بل وننزف داخل الأحلام، دون أن يجعلنا ذلك نظن أنها واقع».

إذا تغاضينا عن هذه الشوائب، نستطيع القول إن الفيلم أدى دوره كعمل مُسلٍّ ممتع، سواء على المستوى البصري، أم في المفاجآت غير المتوقعة التي تضمنتها الحبكة، سواء عن ماضي «كوايل»، أم سر الكوكب الأحمر بأكمله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما قرأت أول مقطع ترجمته وأرسلته «نرمين رشدي»، ظننت أن بقية الفصول لن تختلف كثيرًا عمَّا رأيته في الفيلم. فانتظرت بلوغ منتصف القصة، حيث توقعت أنها المرحلة التي سيعود فيها البطل إلى المريخ، وينضم إلى المقاومة، و..، و.. غير أنني تفاجأت بأن «كوايل» لم يغادر الأرض مرة أخرى من الأساس. انتهج المؤلف مسارًا مختلفًا في النص الأصلي، انتهى بـ (قفلة) ممتعة جدًّا، جعلتني أتساءل: «ما الفرق - إذًا - بين ما قرأته في قصة، وما شاهدته في الفيلم؟

لم ألبث أن انتبهت إلى أن الصيغة الصحيحة، هي: «ما وجه التشابه؟».

إذا وضعنا الخطوط الرئيسية للاثنين أمام بعضهما، لن نكون مخطئين إذا قلنا إن السيناريو قام - تقريبًا - بإعادة صياغة من الصفر، إذ لم يستعن بأي خيوط من القصة، سوى أن «كوايل عميل سري، نسى أنه كذلك»، و«هناك جهاز يستطيع زرع/ استعادة ذكريات»، آه.. و«أن الزوجة جميلة/ متسلطة».

في الواقع، أتصور أن صانعي الفيلم أحسنوا صنعًا بالاقتصار على ذلك، فما كتبه «ديك» يُعد رائعًا كقصة مكثفة، إلا أن محتواها لا يصلح للمط، لدرجة تغطية أحداث فيلم مدته ساعتين.

بالتالي، عرفت الآن - فقط - أن المغامرة الشيقة التي رأيناها على الشاشة، (خصوصًا نصفها الثاني، الذي يلي انتقال البطل إلى المريخ)، تُعتبر - بالكامل - صنيعة خيال فريق السيناريو «رونالد شوست»،و«دان أوبانون»،و«جون بوفيل»،و«جاري جولدمان»، لا علاقة بينها وبين حبكة النص الأصلي، التي لعبت على وتر مختلف، يمكن تلخيصه في: «ليس من الآمن معرفة كل شيء عن نفسك».

لجأ «كوايل» للشركة كي يزرع طبقة من الذاكرة المزيفة، فاتضح أنه الماضي الخطير والشيق الذي أراد إيهام نفسه به، ما هو إلا عين الحقيقة.

حاول البطل إنقاذ نفسه باستخدام الطريقة نفسها: زراعة طبقة مزيفة جديدة، للتغطية على كل ما فات، والبدء من الصفر. للمرة الثانية، يكتشف أن الوهم الذي اختاروه من بين كل أحلام الطفولة، هو - أيضًا - أمر واقع.

باغتني - وراقني جدًّا - نجاح المؤلف في تصميم حبكة تتكون من طبقتين، ذكّرتني بالـ«ماتريوشكا»: تلك الدُّمى الروسية التي تفتحها، فتجد بالداخل نسخة مطابقة أصغر حجمًا، ثم أصغر، ثم..

بالطريقة نفسها، منحتنا القصة خاتمة ذكية جدًّا، وفي الوقت نفسه.. سعيدة.

إذ عرفنا من خلالها أن «إنتربلان» لن تجرؤ على قتل البطل، سيحدث ذلك لأسباب وجيهة، قام المؤلف بالتمهيد الذكي لها، حيث ربط بين تلك المفاجأة الأخيرة، وبين: مصدر قدرات «كوايل» التي جعلته يتخطى خمسة عشر حارسًا، بالإضافة إلى تعميق دور حادثة الطفولة التي ظنها حلمًا، وتسبب في خلق الهاجس والدافع لاختيار مهنة «العميل السري» من الأساس.

أي إن الذكرى التي تسببت في بدء تساقط قطع الدومينو، حتى وصلت بـ«كوايل» إلى خانة «المحكوم عليهم بالإعدام»، هي ذاتها الذي منحته قشة النجاة.

من المعروف، أن الخيال العلمي - مثله مثل أي مجال آخر - يتطور بمرور الزمن، فيفترض أن الخيال العلمي الذي صدر في منتصف القرن العشرين، أقل تطورًا وقابلية للاشتباك مع ما طرأ من تطور تكنولوجي. غير أن «فيليب كي ديك» يُعد أحد الاستثناءات، التي تميزت بخاصيتين:

لا تزال قصصه - التي كتبها منذ عقود - مصدر استيحاء لأفلام في الألفية الجديدة، مثل «استعادة كلية»، و«تقرير الأقلية»، و«احتيال». كلها أعمال أعاني صعوبة تصديق أن مصدرها (نصوص كتبها مؤلف غير معاصر، توفي منذ سنوات طويلة).

قصصه القصيرة المكثفة، تتميز بقابليتها للتوسع والتحول إلى فيلم طويل، فصارت قماشة مرنة مفضلة في أيدي سيناريستات هوليوود.

بسبب النقطة الثانية تحديدًا، عندما خطرت لي فكرة كتاب عن (ترجمة قصص قصيرة تحولت إلى أفلام)، استدعت ذاكرتي مباشرة اسم «فيليب كي ديك»، ولو تحول هذا الكتاب إلى نواة سلسلة، ففي الأغلب ستكون قصص «ديك» ضيفًا دائمًا على معظم - إن لم يكن كل - أعدادها، أو ربما نخصص له واحدًا بشكل مستقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

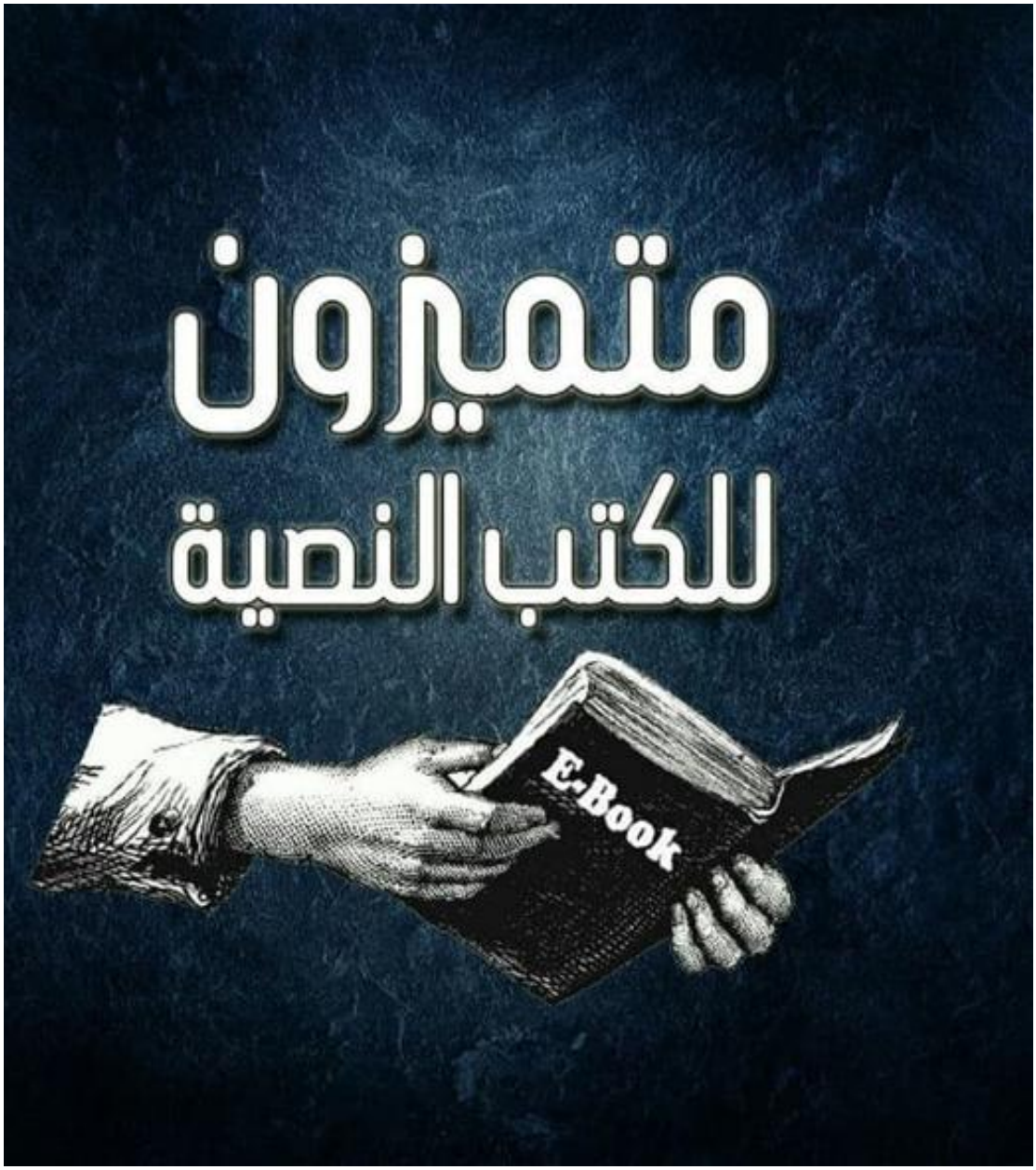
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــاة

الفهرس..

1- الذبابة() تأليف: جورج لانجيلان

I

II

III

IV

V

تحفة سينمائية - غالبًا - لن تحب مشاهدتها مرتين

2- تذكار الموت أو «ميمينتو موري»() تأليف: جوناثان نولان

ميمينتو ! ما المحدد لماهية المرء؟ أفعاله أم ذكرياته؟

3- الحارس() تأليف: آرثر كلارك

«أوديسا الفضاء»: أيقونة سينمائية، أم فيلم ممل؟

رأي آخر

4- جميعكم أيها الموتى الأحياء() تأليف: روبرت أ. هينلاين

(محتوم PREDESTINATION) أفعى لا تكف عن التهام ذيلها

5- يمكننا تذكُّر الأمر كله لك() تأليف: فيليب ك. ديك

طبقات الـ(ماتريوشكا) في قصة (استعادة كلية)

الفهرس..

Notes

[←1]

كاتب وروائي مصري، ينتمي إلى محافظة أسوان، مدير موقع (لأبعد مدى) الإلكتروني، الناطق باسم مبادرة أدبية تحمل الاسم نفسه، أسسها عام ٢٠١٤م، متخصصة في مجال الخيال العلمي والفانتازيا. حاصل على شهادة تقدير من مسابقة (نهاد شريف) للخيال العلمي- فرع القصة القصيرة- ٢٠١٣م، بالإضافة إلى المركز الأول في مسابقة المقال التي أقامتها (مكتبة الإسكندرية) ٢٠١٦م، من كتبه المنشورة (نبوءات الخيال العلمي)، (خط الثقافة المستقلة: القاهرة- أسوان)، بالإضافة إلى روايات (قربان)، (الأمسية المظلمة)، (المنحوتة)، (وراء الحواس). ترجم الأخيرة إلى اللغة الإنجليزية عام ٢٠١٧م.

[←2]

موقع المبادرة: http://www.lab3ad.vom

[←3]

The Fly by George Langelaan

[←4]

قاص وروائي ومترجم. اختارته مكتبة الإسكندرية ضمن صفوف برنامج «شمال وجنوب»، الذي نظمته بالشراكة مع الاتحاد الأوروبي عام ٢٠١٥م. حصلت روايته «انتقام بأثر رجعي» على المركز الأول في مسابقة «القلم الحر» عام ٢٠١٢م، من أعماله الأخرى: رواية «بيانكا»، والمجموعة القصصية «دوافع للقتل»، كما كتب عددًا من القصص المصورة، التي نُشرت في دوريات مصرية وعربية.

Memento Mori by Johnathan Nolan

[←6]

The Sentinel by Arthur C. Clark

[←7]

مترجم مصري. نشر العديد من المقالات عن السينما في دوريات متخصصة، مثل مجلة «جود نيوز»، وموقع «سينما. من أولى الروايات التي ترجمها.. الحديقة الجوارسية» لـ«مايكل كرايتون»، قبل أن يتبعها بـ«اتصال» لـ«كارل ساجان»، و«طارد الأرواح الشريرة» لـ«ويليام بيتر بلاتي»، و«الشيء» لـ«ستيفن كينج»، حاليًّا – قيد الإصدار- «أرتميس» لـ«أندي ويير».

[←8]

All you Zombies by Robert A. Heinlein

[←9]

أغنية (فاستو العجوز)

[←10]

مؤلف وروائي ومترجم مصري. أحد مؤسسي دار نشر «فانتازيون» المتخصصة في أدب الفانتازيا والخيال العلمي. اشتُهر بروايته الفانتازية الضخمة «الغول الأحمر الأخير»، كما ترجم مختارات قصصية من الأدب العالمي تحت بعنوان «طلة على بلاد برة»، والمجموعة القصصية «الدبور المصري» لـ«ألجرنون بلاكوود»، ورواية – بالاشتراك مع مني الدواخلي - «دراكيولا» لـ«برام ستوكر».

[←11]

We can Remember it for you Wholesale by Phillip K. Dick

[←12]

مترجمة مصرية، تخرجت في كلية الألسن (إنجليزي/ إسباني) – من جامعة عين شمس ٢٠٠٧م. حاصلة على ورشة تمثيل تابعة لمهرجان أبو ظبي الثقافي، كما شاركت في أعمال مسرحية خليجية. وهي عضو في اتحاد «نادي الكتاب الوطني» بأبو ظبي، وشاركت في ترجمة - لم تصدر بعد - لرواية «العملاق الودود The BFG" لـ«راوولد دال".